
روايات مصرية للجيب
65
ما وراء الطبيعة
أسطورة
العلامات الدامية
Looloo
www.dvd4arab.com
د. أحمد خالد توفيق

المقدمة

يعرف عدد من الأصدقاء أن هذا ليس كتيب (العلامات الدامية) فى صورته الأولى .. لقد تم حذفه وأعيدت كتابته بالكامل ، ولهذا قصة يطول شرحها .. لا أعرف إن كان هذا هو القرار الأصوب .. ربما كان الكتيب أفضل حالاً فى صورته السابقة ، لكن أوان اتخاذ قرارات كهذه قد تأخر للغاية ..

هى تجربة ربما تستمر وربما تتوقف ، لكنى شعرت بالحاجة إلى دماء جديدة تُحقن فى السلسلة .. وهذه الدماء ليست سوى زيادة سرطانية فى عدد الصفحات وربما الأفكار ، مع تقليل عدد الإصدارات السنوية .. قال أجدادنا إن العدد فى الليمون ، وأنا لم أتباه يومًا بأننى مزارع ليمون نشط ..

دعونا نتجاهل هذه المقدمة إذن تلك التى لا دور لها إلا أن تثب بالمؤلف إلى المقدمة بلا داع ولنتكلم عن حكاية اليوم التى اجتمعنا لها .. يقولِ (ستيفن كنج Stephen King) : « من الخير أن يتوارى المؤلف تمامًا فلا يعود له وجود بعد الصفحة الأولى .. » .. على أن الأمر يختلف

بصددنا نوعًا لأن هناك مؤلفًا لا داعى للكلام عنه وبطلاً حقيقيًا يتكلم بضمير الشخص الأول هو العجوز الثرثار (رفعت إسماعيل) .. وهذا العجوز لا يمكن أن يتوارى ..

كما تعرفون أنا (رفعت إسماعيل) ذاته .. أستاذ أمراض الدم المتقاعد .. يقول المهتمون بهذا الفرع الشائق من الطب إننى جيد .. لكن غالبية من سمعوا اسمى عرفونى طاردًا للأشباح أو مطاردًا لها .. هناك من يحسبنى بارعًا أنتمى لعالم (راين) و (دى) وغيرهما ، وهناك من يحسبنى نصابًا ينتمى لعالم (يورى جيلر) وسواه .. فقط أقول إننى لم أطلب مليمًا لقاء ما أعرفه ، ولم أقدمه على مسرح ، ولم أطلب الإعجاب أو التصديق .. من يعرفنى جيدًا يعرف أن جل ما أطلبه هو أن أترك وشأنى .. لكن هذا من المستحيلات فى عالمنا ..

الآن حان وقت الكلام .. وأنا بحق أحب الكلام .. إنه دليل لا شك فيه على أننى ما زلت حيًا ..

قصتى اليوم تحكى عن ظاهرة غريبة بعض الشىء .. ظاهرة تلك الكهوف فى الهند حيث ..

لحظة .. سأراجع غلاف هذا الكتيب .. عم كنت أنوى

الحديث ؟ العلامات الدامية ؟ أنا وعدت بالحديث عن العلامات الدامية ؟ أليس هذا غريبًا بعض الشىء ؟ ألم ينصحنى أحدكم بالعكس ؟

ليكن .. ظاهرة العلامات الدامية .. إنها فى النهاية قصة كأية قصة أخرى ..

هل سمعت عنها ؟ لا ؟ إذن دعنا نبدأ فى الحال بلا مقاطعة ..

تمهيد

منذ العام ١٩٦٠ لم يستيقظ عم (جلال) لصلاة الفجر .. وهذا لسبب بسيط جدًا هو: أنه لم ينم قط قبلها ..

فى ذلك الشارع الضيق الصغير كان الضوء الوحيد ينبعث من بقالته ، وكان هو المكان الوحيد فى العالم بالنسبة لسكان الشارع على الأقل الذى تستطيع أن تبتاع منه علبة سردين أو شاى أو تبغ بعد الثانية صباحًا ..

إنه مكان دافئ آمن يشبه الفنار للسفن الضالة .. هناك سوف تقترب لتجده جالسًا وسط المحل بين البضائع .. موقد الكيروسين بدفئه الجميل وصوته العذب فى ليالى الشتاء . والبطانية على كتفيه وصوت (أم كلثوم) ينبعث من ذلك المذياع العتيق المربوط بالحبال ..

سوف تقف عنده متلذذًا بذلك الشعور: ظهرك يرتجف من الصقيع ووجهك ينعم بالدفء .. شعور يبعث فيك القشعريرة مع رغبة عارمة فى أن تدخل لتنام بالداخل ، لكن هذا مستحيل لأن المحل ضيق جدًا .. وقد رتب هو كل شىء بحيث لا يضطر إلى النهوض أبدًا ..

لكن بقالة عم (جلال) من المواضع النادرة فى العالم التى

تجعلك تشعر بأن الحياة تستحق أن نحياها .. وقد قالت زوجة من ساكنات الشارع :

ــ «لو صحوت يومًا فوجدت أن هذا الرجل مات ، لشعرت بأن العالم قد انهار ..»

الرجل نفسه عجوز باسم لم يترك مرضًا فى كتب الطب إلا اتخذه لنفسه كما يقتنى هواة النفائس مقتنياتهم ، وإلى حد ما كنت تشعر بأنه يفخر بأمراضه هذه .. إنه يحدثك باعتزاز عن النقرس ويحدثك بفخر عن الروماتزم ويحدثك بكبرياء عن داء السكرى .. ولو كان ذا ثقافة طبية لاتخذ مرضًا غريب الاسم مثل (التهاب الحيزوب) أو (الانسكاب البلورى) ليضمه لمجموعته ..

هكذا يظل الرجل فى متجره وحيدًا لا تعرف فيما يفكر ولا أية ذكريات يجترها ، ثم يتعالى صوت الأذان من زاوية قريبة فينهض .. معجزة أن تراه ينهض كأنك ترى أحد ديناصورات (راى هارى هاوزن Haussen) المتخشبة فى أفلامه القديمة .. حتى توشك أن تبكى تأثرًا لرؤية هذه المعجزة ..

إنه يغلق المتجر .. يمشى إلى المسجد وهو يردد الأدعية

بصوت خفيض .. يؤدى الصلاة ثم ينصرف إلى داره .. إنه يعيش بلا ولد مع زوجة عجوز مثله فى شقة ضيقة بذات الشارع ..

هكذا لن تراه ثانية إلا بعد صلاة الظهر ..

أعترف أننى كنت أهيم حبًا بهذا المتجر وهذا الرجل .. بالنسبة لوطواط حقيقى مثلى كنت بحاجة إلى شخص مثله .. وهكذا كنت أحيانًا أستقل سيارتى وسط شوارع المدينة المظلمة الغافية حتى أصل إلى هذا الشارع .. وهناك أتوقف عنده وأبتاع شيئًا أو شيئين لا حاجة لى بهما ، وأتبادل معه كلمات عن (أم كلثوم) وعن البرد وعن داء السكرى .. لابد من أن يسألنى عن دواء ما لشىء ما ، فأكتبه له على قصاصة ورق .. وأنا أعرف يقينًا أنه لن يبتاع هذا الدواء وأن القصاصة ستضيع خلال خمس دقائق ..

أرمق بشفقة وجهه العجوز الطيب المريض ، ويخطر لى أن هذا الرجل كان طفلاً يومًا ما وكانت له أم تعلمه المشى وتبدل ثيابه .. كان شيئًا نضرًا عزيزًا . أما اليوم فموته حدث مؤسف لا أكثر . سوف ننساه بعد دقائق ..

أحيانًا كنا نتبادل السعال لا أكثر ، وأعترف أن هذه كانت من أعمق المحادثات التى سمعتها فى حياتى ..

أحيانًا كنت أقف صامتًا لأصغى فى تهيب لصوت موقد الكيروسين الذى أعتقد أنه يجب أن يضم إلى السيمفونيات العالمية .. وأدارى أسئلة عديدة .. من أين يبتاعون هذا الاختراع الساحر ؟ كيف يشعلونه ؟ من أين يبتاعون الكيروسين وأنا لم أر بائع كيروسين فى شارعنا منذ ٨٦ سنة ؟

ثم أنصرف وأنا أتنهد .. نعم .. أعترف أننى أحب هذا الرجل بجنون ..

* * *

فى ذلك اليوم نهض الرجل كعادته ليقصد المسجد ..

أغلق المتجر .. وبدأ زحفه البطىء المتثاقل إلى الزاوية فى نهاية الشارع .. هناك منعطف بعدها يصل .. والطقس بارد يجعله يلتف أكثر بذلك المعطف الصوفى العتيق ويحكم التلفيعة أكثر حول عنقه .. إنه يتوضأ فى المتجر دومًا بماء قام بتدفئته لأنه لن ينزع هذه البطانية أبدًا إلا فى داره ..

لنا الآن أن نتصور الشارع الضيق الصموت .. هناك كلب ضال أو كلبان يلتهمان شيئًا فى لفافة تخلص منها أحد

الجيران .. ثم يعوى قط فى مكان ما وقد أصابه الهلع فتنطلق الكلاب كالبرق خلفه ..

إضاءة عامود النور الخافتة .. المتاجر والمطعم التى تعج بالصخب صباحًا وهى الآن غافية كالبشر تمامًا ..

جو يثير الخيال لكن من قال إن عم (جلال) يملك أى قدر من الخيال ؟ مناخ يبعث التوجس .. لكن من قال إن الرجل يخشى شيئًا ؟ من يرد شيئًا من رجل عجوز مثله فليفعل .. لو قتلوه لاختصروا عذاب الشيخوخة .. ولو سرقوه فلا يعنى هذا أكثر من ضياع جهد يومين ..

هكذا يواصل مسيرته التى تستغرق عدة قرون نحو المنعطف ..

ولكن .. ما هذا الصوت ؟ هل هى بومة ؟

أ ج ج ج ت ت ت و و و ش ش ش ش ش ش !!

لا .. ليست بومة .. إنه أقرب إلى صوت شخص يئن .. لكن من الذى يصدر صوتًا كهذا عندما يئن ؟

أ ج ج ج ت ت ت و و و ش ش ش ش ش ش ش !!

إن الصوت يأتى من مدخل تلك البناية العتيقة التى تحرس زاوية الشارع .. بناية من طابقين نخرين لا يميزها شىء .. لكن الصوت يخرج منها بالذات ..

هكذا اقترب أكثر ونظر عبر المدخل بعينين لا تريان ..

وهتف بصوته الواهن :

ـ « يا أهل الله ! »

لا أحد يرد ..

عبث فى جيب المعطف حتى وجد علبة الثقاب .. يحملها معه دائمًا برغم أنه لا يدخن .. لأنه يشعل سجائر الزبائن الذين يقفون يثرثرون معه .. شليك ! اشتعل العود ..

وعلى الضوء المتراقص مد عنقه يتفحص المدخل .. سلحفاة عجوز تطل من درقتها فى شك ..

وعلى الفور أدرك أنه يرى ذلك الجسد الراقد على الأرضية .. جسد بشرى تحيط به بركة صغيرة من الدماء .. ودنا أكثر وقلبه يتواثب بين ضلوعه فرأى المشهد بشكل أوضح لكنه لم يتبين شيئًا ذا بال .. عندما نخاف لا نبصر التفاصيل .. فقط نأخذ انطباعًا عامًا ..

ونظر إلى الجدار فوجد أن الدم قد تناثر عليه ..

وفى ضوء اللهب الراقص استطاع أن يقرأ كلمة كتبت بالدم وبوضوح شديد :

عباس

عند هذه اللحظة كان قلبه قد تحمل الكثير جدًا .. إنه ذلك الألم العاصر الذى يجتاح عظمة القص ويتسلل إلى كتفه اليسرى .. سقط العود من يده ..

واستند إلى الجدار شاعرًا بالخطر ..

قلبه الذى تحمله خمسة وستين عامًا يوشك على أن يعلن الإضراب ..

فتح فمه وأطلق بصوته الواهن أعلى أنين استطاع أن يصدره ..

الجزء الأول

العلامات الدامية

وهذا القاتل ـ ككل القتلة المتسلسلين فى الواقع ـ يحب أن يترك شيئًا يدل على خططه أو يدل عليه .. نحن لم نعتد هذا الطراز من القتلة فى مصر ، لكنهم فى الخارج يعرفون هذه الأساليب جيدًا .. لديهم مثلًا (زودياك) الذى كان يرسل بطاقات لرجال الشرطة وما إلى ذلك .. يقولون إنها تتجاوز رغبة التفاخر الطفولى .. إنها رغبة ماسوشية فى عقاب الذات ، ورغبة في أن يُضبط .. أى أنه يقدم بنفسه للشرطة الخيط الذى يقود إليه .

-١-

تقول (فاتن) :

- « بابا يعمل فلا تضايقاه .. »

تقول (فاتن) :

- « بابا عبقرى ..هذا هو كل شىء »

تقول (فاتن) :

- « بابا من العلماء الذين تسمعان عنهم .. »

تقول هذا كله لـ (رامى) و (نهى) ، فتتسع عينا الطفلين فى رهبة ويقرران ألا يضايقا أباهما أبدًا .. طبعًا يبران بهذا القسم ربع ساعة أو أقل .. ثم ينتصر شيطان الطفولة ويعودان للصخب .. كان هذا يذكرها بمدمن المخدرات الذى يقسم على التوبة ، فقط إلى أن ينخفض مفعول المخدر فى دمه ..

كانت (فاتن) تقول هذا لأنها تؤمن أن على الأطفال أن يفخروا بأبيهم ، وكانت تضفى على وجهها كل أمارات الصدق والتهيب ، حتى يقتنع الطفلان ..

لكنها حينما كانت تنفرد بنفسها كانت تدرك أنها بالغت قليلاً .. هى بالفعل لا تستطيع الاعتقاد بأن ما يقوم به (زكى) بهذه الأهمية ..

كان يستيقظ من نوم العصر فى السادسة مساءً ، ويقف لحظة أمام باب غرفة النوم يحك شعره المجعد الذى انتثر حول رأسه نصف الأصلع ، ثم يتثاءب كأفراس النهر .. ويتجه إلى الحمام .. بعد دقائق يجلس فى الصالة يرمق المكان بعينين لا تريان وعلامات النعاس تبدو على كل شىء فيه .. ثم يقول لها بلهجة متعبة آمرة :

- « القهوة يا (فاتن) .. »

فتهرع إلى المطبخ لتعد له القهوة السادة التى يحبها .. تعود له بالقدح فيرتشف منه فى وقار وتؤدة ، ثم يضعه جانبًا ويقول عبارته الشهيرة :

- « شكرًا يا ستى »

ثم ينهض متثاقلاً إلى غرفة المكتب .. بعدها ينغلق الباب وتمر الساعات تلو الساعات دون أن يخرج .. وفى العاشرة مساءً تدق الباب لتضع أمامه صحفة عليها بعض شطائر الجبن ، يلتهمها حيث جلس على الأرض فى الغرفة وحوله

تتناثر أوراق عتيقة جدًا .. سبب جلوسه على الأرض هو أنه لا مكان لهذا كله على المكتب ..

يلتهم الشطائر ثم يطلب القهوة من جديد ويسأل عن الأطفال .. لقد نام الصغيران طبعًا ..

تجلس فى الصالة تتابع التلفزيون بعض الوقت وتحاول أن تقنع نفسها بأنها سعيدة .. وعند منتصف الليل تدخل فراشها وتنام ..

فقط تشعر به فى الثانية صباحًا يندس تحت الملاءات وهو يلهث بردًا وإرهاقًا .. وبعد قليل يتعالى صوت شخيره ..

ليس شخيرًا فقط .. أحيانًا تسمعه يتكلم أثناء نومه لكنها لا تفهم على الإطلاق ما يقوله .. أصوات مختلطة كزئير الدببة الغافية فى بياتها الشتوى .. لكنها تبعث فى نفسها رعدة ما .. تقول لنفسها : صاحب هذه الأصوات ليس نقى الضمير .. لا يمكن أن يكون نقى الضمير .. ثمة شىء يثقل كاهله ..

وفى السادسة صباحًا تنهض .. تعد الطفلين للمدرسة وتعد له الإفطار والقهوة .. يرتدى بذلته ويحمل حقيبة الأوراق وينطلق إلى العمل ..

إنه أستاذ بالجامعة .. أستاذ تاريخ على وجه التحديد .. لا تعرف أية تفاصيل أخرى ، لكنها تقنع نفسها بأنه عبقرى وأنه يقوم بأشياء مهمة جدًا تجعلها لا تراه على الإطلاق .. ولا تعرفه على الإطلاق ..

كانت تحب بيتها بحق .. لهذا كانت على استعداد لقبول الكثير ، لكنها كانت تتمنى أن تشعر بأنها تملك شيئًا فى عالمه .. شيئًا واحدًا فقط .. والأدهى أنها لم تكمل تعليمها ، لهذا لم تستطع قط أن تفهم شيئًا على الإطلاق من عالمه .. إنها أشياء مهمة وكفى ..

وقد صارحت أمها بهذا ذات يوم فقالت لها :

ـ « أنت مدللة .. هكذا شأن النساء .. يقضى الزوج جل يومه خارج البيت فتملأ الدنيا صراخًا .. يقضى جل يومه فى البيت فتشكو وتبكى .. احمدى الله على أنك تعرفين أين زوجك .. وتعرفين ما يفكر فيه بالضبط .. لو لم يهتم بتلك الأوراق لاهتم بالنساء الأخريات .. »

لكنها لم تر فارقًا كبيرًا .. وخطر لها أن زوجها لو اهتم بالنساء الأخريات لبدا لها على الأقل بشريًا لا يفتقر للإحساس .. ذات مرة سمعت فى المذياع قصة راقت لها عن

(الفارابى) ــ أم هو (الجاحظ) ؟ ــ الذى سكبت حماته محبرته .. فلما سألها عن السبب قالت له : هذه المحبرة أشد خطرًا على ابنتى من ألف ضرة ..

سمعت هذه القصة فلم تستطع إلا أن تنبهر بحكمة هذه المرأة ودقتها فى التعبير ..

★ ★ ★

لعل القصة بدأت يوم الثلاثاء الأول من الشهر ..

إنه اليوم الذى يسافر فيه إلى قريته كل شهر .. هى تعرف هذا لأنه يصادف يوم إجازته .. وقد قررت فى ذلك اليوم أن الوقت قد حان لتنظيف الغرفة كما كانت تفعل دومًا كل شهر .. مرة كل شهر .. هذا هو أعلى معدل يمكن أن يسمح به ..

دخلت غرفة المكتب وراحت تزيل الغبار عن الأرفف والمكتب العتيق .. ثم بدأت تجمع الأوراق المتناثرة ، وخطر لها أن هذه الأوراق عتيقة حقًا .. حاولت أن تقرأ الموجود لكنه كان بحروف لاتينية يمكنها أن تقرأها لكنها لا تفهمها .. لكن هناك الكثير من الرسوم التخطيطية .. ثمة دوائر مقسمة تخرج منها أسهم ونجوم وأشياء لا يمكن فهمها ..

الشىء الغريب هو أن هذه الأوراق متسخة .. هناك من سكب عليها قدحًا من الشيكولاته الساخنة يومًا ما ، والدليل هذه البقع البنية الواسعة التى لا تمنع القراءة لكنها لا تجعلها سهلة ..

جمعت الأوراق قدر استطاعتها ووضعتها على المكتب .. ثمة شىء وقع على الأرض فانحنت تلتقطه ..

آه ! هنا شىء مهم ..

صورة بحجم هذا الكتيب .. صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود لفتاة .. هذه الصورة كانت بين الأوراق . و(فاتن) على قدر من الحصافة لتعرف أن هذه فتاة حقيقية .. ليست مجرد موديل تم انتزاع صورتها من مجلة ..

هكذا جلست (فاتن) إلى المكتب وهى تشعر بأن رأسها يوشك على الانفجار .. فتاة جميلة هى .. شقراء .. على الأرجح هى أجنبية .. وها هى ذى تنظر إلى الكاميرا فى نظرة متحدية قليلاً كأنها تتوعد المصور بالويل ، ومن خلفها يبدو جبل تغطى سفحه الأشجار وكوخ ريفى أوروبى الطابع .. نعم .. لا شك فى أنها فتاة أجنبية ..

قلبت الصورة فوجدت كتابة بحروف لاتينية ما ، وبذلك

الخط المائل المتشابك الأنيق مستحيل القراءة الذى يوقع بـه الغربيون .. كانت على الأقل تعرف كلمة Love وقد أجهـدت عينيها بحثًا عنها فلم تجدها لحسن الحظ .. لكن من أدراها أن هذه القملة إنجليزية ؟ ربما كانت فرنسية أو ألمانية ؟

ألمانية !!

زوجها كان فى تلك البعثة إلى (النمسا) منذ عامين .. هى لا تعرف أين توجد النمسا لكنها فى ذهنها تختلط بألمانيا بشكل ما .. الأمور واضحة إذن .. هذه الفتاة قد عرفها حينما كان فى النمسا .. ولم يذكر عنها حرفًا .. أما لماذا يحتفظ المرء بصورة بهذا الحجم لفتاة لا تعنيه فى شىء فأمر لا يعلمه إلا الله ..

راحت تنظر إلى صورة الفتاة مدققة ، وفى كل لحظة تشعر بأنها تعرفها أكثر فأكثر ..

وفى النهاية أعادت كل شىء إلى مكانه وغادرت الغرفة .. وكان ذهنها يعمل فى حماس .. وقررت أن تسأله عنها عندما يعود .. الهجوم المباشر خير وسيلة لأن هذا سيفقده القدرة على التأليف .. سوف يرتبك ثم يقول كل شىء ..

نظرت لصورته المعلقة فى الصالة وقالت بصوت خافت :

ـ « ما الذى رأته فيك ؟ صدقنى .. لن تجد امرأة أخرى فى العالم تراك جميلاً سواى .. لن تجد امرأة تقبل طباعك الغريبة المملة سواى .. أنا لا أعرف عنها حرفًا لكننى أعرف أنها غير صادقة .. أية امرأة تزعم أنها معجبة بك هى كاذبة .. كاذبة يا صاحبى ! »

وفتحت جهاز التلفزيون وراحت تتابع فيلمًا عربيًا يحكى عن الخيانة الزوجية .. كان هذا يناسب أفكارها بشدة ..

-٢-

(عادل) ومديرية الأمن فى الإسكندرية ..

أنا بطبعى من الطراز العصبى مرهف الحس ، الذى لا يشعر براحة فى هذا الجو .. ولو رأيت وجهى فى أى قسم شرطة لحسبت أننى جئت لأعترف بقتل ستة أو سبعة أطفال أبرياء .. لكن مديرية أمن الإسكندرية تعنى بالنسبة لى جزءًا مهمًا من ذاتى : (عادل) صديق الصبا الذى صار عميدًا الآن ، والذى أفضل لقاءه بعيدًا عن البيت لأسباب يعرفها قارئ هذه السلسلة جيدًا ..

حتى وأنت فى نهاية الممر تسمع صوته الصاخب .. يتشاجر أو يمزح أو يهمس .. فهو من هؤلاء الأشخاص الذين يهز همسهم المكان .. تسمع صوته من وراء البارافان فتقول لجندى الحراسة المتشكك على الباب إنك ترغب في لقائه ..

عندما تدخل تحمّل ما سيحدث لك .. كل هذا الصراخ و(أهلاااااااااااان) التى تستمر لربع ساعة ثم تحمل كل الضربات واللكمات على كتفيك ، وكل القسم المغلظ على أنه لن يتركك ..

- « أنت رهن الاعتقال ! نياهااااااهاهاهاه ! »

يقولها وهو يقرع الجرس ليطلب لك القهوة .. ..

بعد كل هذا الاستقبال المرعب تجلس وتصارحه بأنك جئت لأنك تشعر بفراغ روحى رهيب .. أنت بحاجة إلى أن ترى خيطًا مجرد خيط يذكرك بكيانك القديم ..

يسألك عن أحوالك وتسأله عن أحواله وأحوال (أشرف) ابنه .. وتشعر بذلك المذاق الأليم اللذيذ لذكريات الماضى ..

بعد ربع ساعة من الكلام قال وهو يحك رأسه :

- « بالمناسبة .. سعيد لأنك جئت الآن .. أردت أن أسألك عن شىء ما .. »

ثم مد يده يعبث فى الدرج وأخرج مظروفًا أصفر حكومى الطابع كئيبًا .. وقال :

- « استشارة .. »

سألته باسمًا :

- « هل تسأل الصديق أم الطبيب أم خبير الميتافيزيقا ؟ »

قال فى عصبية :

ـ « لا يهمنى إن كنت أسأل الشيطان ذاته .. المهم أننى أطلب رأيك .. »

ثم ناولنى مجموعة من الصور الفوتوغرافية كبيرة الحجم .. وعقد أصابعه تحت ذقنه ينتظر رأيى ..

رأيت فى الصور جثة رجل .. طريقة التصوير والزوايا المتعددة توحى بأنها صور التقطها خبراء المختبر الجنائى فى مكان حادث ما .. لم أستطع تحديد كيفية موت الرجل لأن بقعة سوداء كبيرة كانت تحتل موضع صدره .. سوداء تعنى حمراء طبعًا لأن الصور بالأبيض والأسود ..

عامة كانت ملامح الرجل أقرب إلى الرقى .. وثيابه توحى بأنه من الطبقة الوسطى أو أعلى قليلاً .. وعلى الأرض كانت بقعة من الدم .. بقعة غريبة الشكل فعلاً ..

على أننى فهمت الأمر أكثر فى لقطات مقربة .. إن كلمة قد كتبت بهذه البقعة وبوضوح شديد :

(زكى) ..

كان هذا كل شىء ..

أعدت له الصور ورفعت حاجبى بمعنى التساؤل .. لكنه سألنى بدوره وهو يشعل لفافة تبغ :

ـ « رأيك ؟ »

قلت وأنا أفكر بحثًا عن مقلب ما أعده لى :

ـ « لو كان القاتل يدعى (زكى) لكانت القصة واضحة .. »

نفث سحابة كثيفة من الدخان فى هواء الغرفة وسألنى :

ـ « والاحتمالات الأخرى ؟ »

ـ « من الممكن أن يكون القتيل ذاته هو (زكى) .. »

ابتسم وقال فى تهكم :

ـ « لا .. اسمه ((يوسف) .. أبو الحسن) .. وهو مدرس بكلية الآداب جامعة (.....). »

قلت وأنا أعيد التفكير :

ـ « إذن الاحتمال الوحيد هو أن هذا اسم القاتل كما كتبه القتيل .. إن هذا المشهد خالد فى الألغاز البوليسية .. وغالبًا ما يتضح أن البوليس يقرأ الاسم بشكل خطأ .. حرف M يتضح أنه حرف W .. وبعد ما يكونون قد أرهقوا (مارتن) البائس طيلة القصة ، يتضح أن (ونستون) هو القاتل .. »

أعاد لى الصور وقال :

ـ « ألا يوجد ما يعارض هذه الفكرة ؟ »

تأملت الصور فى عناية فلم أر ما يمنع .. قلت له بصراحة أنه (قد غلب حمارى) .. فقال :

ـ « لم تكن أنامل القتيل ملوثة بالدم .. راحتاه واضحتان فى الصور .. لو كتب اسم قاتله لوجدت الدم على أنامله .. ثم لاحظ الخط كذلك .. »

وأشار بسن قلمه إلى الصورة التى تظهر الكلمة وقال :

ـ « خط جميل جدًا .. لا أتخيل أن شخصًا يلفظ أنفاسه الأخيرة سيراعى قواعد الخط ويكتب الاسم بهذا الوضوح .. دعك من أن وضع الجثة يجعل من المستحيل أن يعتدل ليكتب الكلمة فى هذا الموضع بالذات . »

قلت فى غيظ :

ـ « يا سلام ! يا أخى زحف حتى كتبها ثم انقلب على ظهره ومات .. إن المحتضرين يبدلون وضعهم أحيانًا .. »

كان قد فكر فى كل شىء وهذا طبيعى .. ما يثير غيظى هو أنه يتوقع أن أصل لمدى التقدم فى الاستنتاج الذى بلغه

هو نفسه وهو خطأ يكرره البشر كثيرًا . تجهد نفسك أيامًا فى قضية ما ثم تتبادل الرأى مع شخص يسمع عنها لأول مرة ، فيثير ذهولك بغبائه وبطء تفكيره .. كل اقتراحاته قديمة غير مبتكرة .. وهذا نموذج آخر لظلم الإنسان وافتقاره للعدل ..

قال فى ثقة :

ـ « ما كان ليقدر على تبديل وضعه لأنه مات على الفور .. لم توجد فترة احتضار كافية .. »

ـ « والسبب ؟ »

اتسعت عيناه فى دهشة وقال :

ـ « كيف تسأل عن هذا وأنت طبيب ؟ لقد انتزع قلبه من صدره ! حسبتك لاحظت هذا ! »

* * *

قلت له ونحن نتناول الغداء فى ذلك المطعم على الكورنيش :

ـ « لم أر جريمة بهذه البشاعة .. لحسن الحظ أننى لم أرها رأى العين .. أشياء كهذه تسمع عنها فى قصص الحروب الهمجية القديمة فقط .. »

هز رأسه موافقًا وأردف :

ـ « ولا أنا وحياتك .. الأمر يوحى بالكراهية . الكثير منها .. ليس التمثيل بالجثث بهذه الطريقة من سمات الشخصية المصرية عمومًا .. حتى القتلة والسفاحين يتحركون تحت سقف لا يجسرون على تجاوزه .. لهذا شعرت أن فى الأمر ما يتجاوز القواعد المعروفة لنا ورأيت أن أسألك .. »

ثم نظر إلى طريق الكورنيش خارج واجهة المطعم البانورامية وسألنى :

ـ « إذن أنت ترى معى أن المقتول لم يفعلها .. فماذا عن القاتل ؟ »

قلت فى ثقة :

ـ « أنت لم تترك مخرجًا آخر .. لقد فعلها القاتل .. »

وتذكرت جريمة مقتل (شارون تيت Sharon Tate) ممثلة (هوليوود) الحسناء .. كانت جريمة ساخنة فى ذلك العصر .. القصة غريبة وأقرب إلى مسرح العبث .. هناك مخبول يدعى (مانسون Manson) الذى اشتهر باسم

(زعيم الهيبيز) قام مع أتباعه بمهاجمة بيت الممثلة .. وكانت مذبحة لها وضيوفها وابنها الذى كانت تحمله فى بطنها بعد ، وقد نجا زوجها المخرج العالمى (رومان بولانسكى Polaniski) من المذبحة بمعجزة ، لكنه تحول إلى عبقرى مخبول بعدها .. لقد وجد البوليس المذبحة ووجد كلمات مكتوبة بالدم على جدران البيت (الخنازير .. الخنازير) .. فيما بعد اتضح أن الأخ (مانسون) كان يملك نظرية عبقرية .. سوف يرتكب المذبحة فيلصق رجال الشرطة التهمة بالزنوج .. يثور الزنوج ويقضون على البيض .. هكذا يصير الطريق مفتوحًا أمامه للسيطرة على أمريكا فالعالم ! لا تعجب فعقار الهلوسة LSD قادر على هذا وأكثر ..

أفقت على صوت (عادل) يسألنى :

ـ « حسن .. وماذا يجنيه القاتل من كتابة اسم (زكى) ؟ »

فكرت فى رد مستفز يثير غيظه فلم أجد أفضل من التالى :

ـ « التفسير الوحيد هو أن القاتل يدعى (زكى) ! »

ـ « أنت عبقرى ! »

ـ «لقد كان فخورًا بما قام به لذا وقع على عمله باسمه .. كل فنان أصيل يشعر بهذه الرغبة بمجرد أن ينتهى من لوحته الفنية !»

راح ينظر لى طويلاً ولم يعلق ..

أعتقد أن الفكرة برغم كل شىء بدأت تروق له ..

-٣-

عندما تدخل مقر الجريدة سوف يثير ذهولك الجو العام الموحى بالفقر والبؤس ..

أنت تسمع عن تلك الجريدة من آن لآخر وترى أعدادها فى كل مكان .. بالطبع أنت لا تتوقع أن يكون مقرها شبيهًا بمبنى الأهرام أو الأخبار ، لكنك كذلك لا تتوقع أن يكون تلك الشقة البائسة بالطابق الثالث من تلك البناية المتداعية ..

سوف تجتاز المدخل محاولاً ألا تتعثر بصندوقى القمامة هذين ، ومحاولاً ألا يظفر هذا القط بطرف سروالك .. ترى تلك الأسهم على الجدار وهى الشىء الوحيد الذى يقنعك بأنك لست أحمق ..

تصعد طابقين .. رائحة العفن تتزايد .. الطابق الثالث .. وهذه اللافتة على الباب ..

ثمة سكرتيرة شاحبة تدس قدميها فى خفين منزليين ، وأمامها رغيفان تعلوهما ثلاثة أو أربعة أقراص من الطعمية .. ثمة كيس بلاستيكى صغير به المخللات اللازمة .. والفتاة تتضور جوعًا .. من الصباح هى تتضور

جوعًا لهذا لا ترحب بك على الإطلاق .. إنها تنتظر اللحظة التى يكف فيها الزوار عن التوافد لتفتك بالرغيفين .. ثم تتبعهما بكوب من الشاى الأسود ، وبعدها تكتشف أن الحياة رائعة وأن هذا أفضل العوالم الممكنة ..

أمامها يجلس عم (فهيم) الفراش المسن .. إنه دائمًا يشعر بالملل وينتهز أية فرصة ليغفو .. وهو الآخر بانتظار رحيلك بفارغ الصبر ..

هل تشم هذا المزيج الغريب من رائحة حبر الآلة الكاتبة والشاى على (السبرتاية) والعطن المتصاعد من دورة المياه ؟ نعم .. ليست هى (النيويورك تايمز) لكنها صحيفة على كل حال ، ولها قراؤها الذين هم مثلك لا يتصورون أن يكون هذا هو المكان .. بالمناسبة لا تجازف أبدًا بدخول دورة المياه .. لا تسأل عن السبب لكن حمقى كثيرين فعلوها وهم الآن فى المصحات يعالجون من الصدمة النفسية ..

صوت آلة كاتبة فى مكان ما .. وصوت من يضحك بصوت عال .. وصوت مذياع مفتوح ..

تسأل عن الأستاذ (فايز) .. لماذا تسأل عنه ؟ لأنه هو الشخص الذى يهمك هنا وهو صحفى شاب متحمس .. يعتقد

أنه جاء العالم ليغير كل ما فيه من فساد ، وليوقف كل شخص عند حده أخيرًا ..

الأستاذ (فايز) ليس هنا .. إنه فى مكان ما .. هو لم يظهر منذ ثلاثة أيام لكن هذا معتاد هنا وفى هذه المهنة ..

(فايز) فى الرابعة والعشرين .. غير متزوج .. غير حليق الذقن .. غير مهندم .. أعتقد أنه لا ينال إلا بضعة ملاليم ، ولكنه من الطراز المتفائل .. ليست له أسرة فى القاهرة لكنه يقيم فى (لوكاندة) ما من لوكاندات الحسين .. لهذا لا يستعمل إلا قميصًا واحدًا وجوربًا واحدًا وحذاء واحدًا .. وهو ظريف حاضر الدعابة لا يتورع عن استعمال لفظة غزل عابرة من حين لآخر لهذا هو أكثر شخص هنا يروق للسكرتيرة الشاحبة ..

فى الفترة الأخيرة كان (فايز) متحمسًا .. أعنى أكثر من اللازم .. يبدو أنه وضع يده على موضوع مهم .. وكان مشغولاً أكثر الوقت ..

ثم قام بمعجزة لم يرها أحد من قبل .. لقد أغلق درج مكتبه وابتاع (رزة) وقفلاً وبصبر قام بتثبيتهما .. كان الدرج مفتوحًا طيلة الوقت كقلب صديق .. لا ترى فيه إلا علبة

تبغ فارغة مهشمة وجريدة عمرها عامان .. لكنه اليوم حرص على إغلاق الدرج .. وقد قال له زميله (سامح) :

ـ «يبدو أنك كونت ثروة أخيرًا .. لقد صار لديك ما تخفيه ..»

قال (فايز) فى ثقة :

ـ «محسوبك ليس لديه ما يخفيه إلا الأفكار الأصيلة ..»

ولم يكن (سامح) يقوم بعمل ذى بال منذ فترة .. لم تكن لديه أفكار ولم يكلفه أحد بشىء .. لهذا راح يمارس العمل الوحيد الذى يجيده حقًا : شراء الإعلانات .. كان يحمل كارنيه الصحيفة ويخرج منذ الصباح الباكر ليدور على الشركات والمحلات يعرض بضاعته ..

أحيانًا يعود بحمل ثمين وفى الغالب لا يعود بشىء على الإطلاق ..

لهذا كان الفضول يعتصره ليعرف ما يدور بذهن (فايز) ..

كان يعرف أنهما متشابهان فى الظروف والموهبة والوضع المادى .. ومعنى هذا أن أحدهما يصلح بديلاً للآخر .. وفى

الفترة الأخيرة بدا سكرتير التحرير غير راض عن العمالة الزائدة فى الجريدة .. فلو جرى ترجيح الكفتين لن يحتاج المرء إلى عراف كى يحدد اسم من يتم الاستغناء عنه ..

لو لم يحقق شيئًا غير التهام الشطائر وشرب الشاى فى هذا الشهر فمن الوارد أن يجد نفسه فى الشارع قريبًا .. وهو شىء يقلقه برغم أنه لم يتقاض نقودًا حقيقية منذ شهرين .. على الأقل كان له مكان يذهب إليه فى الصباح ويعود منه منهكًا فى المساء ..

منذ عدة أيام لم يعد (فايز) وهذا شىء يحدث كثيرًا .. لكنه يعود فى كل مرة مثقلاً بالأخبار أو التحقيقات الجديدة .. وعندها يعود اسمه للظهور فى الجريدة وربما صورته أيضًا ..

وجاءت اللحظة المناسبة عصر ذلك اليوم .. لقد خلت الغرفة التى تضم خمسة أو ستة من الصحفيين .. إنه ذلك الجو الخامل بعد الغداء .. دعك من أن ثلاثة منهم يصلّون جماعة فى الممر الخارجى و (سامح) لم يكن من المصلين ، لهذا انتظر حتى سمع صوت التكبير وعرف أن الممر مسدود الآن .. لا أحد يستطيع مغادرة الغرفة أو الدخول لها ..

هكذا تناول دبوس الشعر النسائى من جيبه .. قليل من الناس من يعرف كيف يفتح قفلاً بدبوس شعر أنثوى لكنه يعرف هذا ويعرف أشياء كثيرة أخرى .. لن يؤنبه ضميره لأنه هكذا يعتقد سيكتفى بإلقاء نظرة فضولية ..-

« الله أكبر »

بسرعة يدس الدبوس فى القفل الذى يغلق الدرج .. وراح يعبث هنا وهناك ..

« سمع الله لمن حمد »

صوت (كليك) المميز .. لقد استجاب القفل الصغير .. إن (فايز) أحمق إذا حسب أن هذا القفل يحمى أسراره حقًا ..

« الله أكبر »

انفتح الدرج أخيرًا .. الآن يرى بوضوح أن هناك مجموعة من الصحف المطوية .. لا وقت للبحث فيها .. ماذا يوجد تحتها ؟ يوجد مظروف كبير .. فلنر ما به ..

« الله أكبر »

المظروف به أوراق كثيرة .. أوراق عتيقة فى الواقع ..

حوالى مائة ورقة يبدو أنه تم نسخها زنكوغرافيًا (لم يكن تصوير المستندات شائعًا وقتها) .. ولكن هذه الكتابة ؟ إنه يعرف هذه الحروف .. إنها العبرية ولا شك فى هذا .. ولكن ما معنى هذا ؟

كانت البلاد فى حالة حرب .. وللحروف العبرية ذات الإيحاء المقبض المقزز الذى تثيره فيك أرجل العنكبوت المشعرة .. (فايز) لا يجيد العبرية وعمله لا يتعلق بها بأى شكل كان .. فما معنى أن تجد أوراقًا عبرية فى درجه المغلق ؟

« السلام عليكم ورحمة الله وبركاته »

لا وقت للمزيد من الاستنتاجات .. سوف يصلون فى أى وقت .. لكن يجب أن تحتفظ بهامش عريض من الشك .. هناك جواسيس فى هذا العالم .. والجاسوس قد يكون أخاك أو جارك ..

أو صديقك فى العمل !

أغلق الدرج بسرعة ويده ترتجف وضغط القفل ليغلقه ..

« السلام عليكم ورحمة الله »

ما الذى يقوم به (فايز) بالضبط ؟

ـ ٤ ـ

عندما تأتى الثالثة صباحًا لا يعود بوسعك الاستيقاظ أكثر من هذا ..

كان (بسيونى) يعرف هذا عن نفسه ويقبله كحقيقة لا مفر منها ..

صحيح أنه يبدأ السهرة بإشعال (الراكية) وإعداد الشاى ، وصحيح أنه يفرغ ثلاثة أو أربعة أكواب من الشاى الأسود الثقيل فى جوفه ويفتح المذياع ، ثم يخرج (الجوزة) ويدخن حجرين على الأقل .. إلا أنه يعرف ذلك الخدر اللذيذ المتسلل إلى جفنيه .. ثم يصير وزن الجفن عدة أطنان ..

الحقيقة أنه لم يكن متفرغًا لهذه المهنة ، وكان يقضى الوقت صباحًا فى حقله .. لهذا كانت قدرته على السهر تتلاشى تمامًا عندما تمر ساعتان بعد منتصف الليل ..

على أنه لم يكن يقلق كثيرًا .. إنه لم يصادف طيلة عمله خفيرًا فى (شونة) الغلال هذه لصًا واحدًا .. عشرة أعوام ولم ير لصًا واحدًا ، حتى أنه كون نظريته الخاصة عن العالم : العالم مكان آمن تمامًا والحوادث لا تقع أبدًا ..

إن (بسيونى) فى الخمسين من عمره ، ولكنه يبدو فى الستين .. وله عبارة واحدة لا يكف عن ترديدها : نحن نشقى فى هذه المهنة و حان الوقت كى نستريح ..

الخطر الوحيد المحتمل هو تلك الكلاب المسعورة التى تحوم حول (الشونة) ليلاً ومن عيونها يتصاعد الشرر .. لكنه كان يكتفى بقذفها بحجر أو حجرين .. دعك من الجان طبعًا فهذا شىء متوقع ومقبول .. عندما يمر به هؤلاء الناس طوال القامة ذوو العيون المشقوقة طوليًا ، وأقدامهم ذات الحوافر تدق الأرض دقًا ، كان يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم .. وكان هذا يكفى لرحيلهم غالبًا .. بعض القطط لم تكن مريحة جدًا وكان يعرف أنها أرواح متنكرة ، لكن كان يصلح معها ذات أسلوب التعامل مع الجان ..

هكذا كان يمضى الساعات ملتفًا بمعطفه الصوفى الثقيل ، والتلفيعة تحيط بعنقه لتعزله عن العالم عزلاً .. وكان يعبث فى النار بطرف عصا ويصغى لصوت الاحتراق .. ثم فى الثالثة صباحًا يغيب عن الوعى تمامًا .. فقط ليصحو مع ضوء الشمس الدافئ المطمئن يخبره أن ليلة أخرى قد مرت ..

هكذا يعد لنفسه كوبًا أخيرًا من الشاى وينتظر حتى يصل الرجال ، وتضج الشونة بالحركة .. ثم يمشى الهوينى عائدًا

إلى داره حيث تكون (أم محمود) قد أعدت له الإفطار .. سوف يظفر بساعتين أخريين من النوم ثم ينهض ليعنى بحقله ..

الليلة يضنيه البرد .. إن عظامه لم تعد تتحمله على الإطلاق ، وهى ذى مناشير الروماتزم (المراتزم كما يسميه) تعمل عملها فى عظامه .. لهذا أحكم الغطاء من حوله ومد ساقيه نحو النار .. إن (الكلسون) الصوفى لم يعد يؤدى عمله جيدًا ..

يسمع الآن صوت ذلك الكلب يعوى فى مكان ما فيجاوبه كلب آخر يعوى من موضع آخر .. فى الليل يكون عواء هذه الوحوش مروعًا كأنها أسود تتصارع ..

ثم ظهر ذلك الكلب الأسود الضخم يجرى وسط الشونة .. يقترب منه وهو يزوم .. مد يده والتقط حجرًا وأحكم التصويب ثم قذفه على الكلب وأطلق سبة بذيئة ..

لم يمس الحجر الكلب لكنه أطلق ساقيه للريح مبتعدًا ..

ثم بدأ (بسيونى) يفهم سبب حماس الكلب .. الكلب لم يكن يهاجمه بل كان يركض خلف رجل يركض .. هذه هى غريزة الكلاب الدائمة .. هذا الرجل يركض داخل الشونة وبالطبع يغلفه الظلام فلا تعرف ما يطارده بالضبط ..

لقد داعب النوم عينى (بسيونى) لحظة فلم ير هذا الرجل يدخل ..

نهض ومد يده يحمل البندقية العتيقة التى لا يعرف إن كانت تعمل أم لا .. وراح يجد الأثر نحو ذلك الرجل الذى دار حول المخزن ..

أراد أن يصرخ بشىء مما يقول الخفراء على غرار (مين هناك) أو شىء من هذا القبيل ، لكن النوم كان يغلبه أولاً ، ثم إنه لم يعتد هذه المواقف .. لهذا فضل أن يتم المطاردة فى صمت ..

شق طريقه بين زكائب الغلال .. وهو يحاول ألا يتعثر .. قلبه يتواثب بين ضلوعه من فرط الإثارة ..

أخيرًا دنا من المخزن .. إن بابه فى الجهة الأخرى لهذا رجح أن الرجل دخله .. ستكون هذه مشكلة لأن الزكائب الكثيرة بالداخل سوف تجعل الاختفاء سهلاً .. سوف ينتظره الرجل حتى يبتعد عن الباب ثم يخرج منه .. دعك من الظلام بالداخل .. لن تقدر على رؤية يدك ..

لهذا وقف جوار الباب لحظة وهو يلهث ويفكر فيما يجب عمله ..

إ ج ج ج ت ت ت و و و ش ش ش ش ش ش ش !!

ما هذا الصوت العجيب ؟ رجل يصرخ ؟ وهل من يصرخ يستعمل أى حرف غير الألف والهاء ؟ الحق أن الصوت جمد الدم فى عروقه ..

والآن وجد الصوت فصرخ بأعلى صوته :

ـ « من بالداخل ؟ »

لا رد .. فقط تردد الصوت ثانية :

إ ج ج ج ت ت ت و و و ش ش ش ش ش ش !!

هكذا توغل أكثر داخل المخزن وهو يشعر بأنه عجوز مريض ، وأن قلبه مرهق للغاية .. كان فى جيبه عود ثقاب فأشعله واقترب من مصدر الصوت أكثر ..

هناك دماء ..

هناك رجل راقد على الأرض .. رجل يرتدى ثيابًا غربية .. (أفندى) كما يحلو له أن يصفه .. جوار الرجل كانت بركة من الدم الطازج .. واستطاع أن يرى كلمة خطت على الأرض الترابية .. سوف تتشربها الرمال سريعًا .. إنه يقرأ .. ليس

ببراعة لكنه يفهم المطلوب على كل حال .. هكذا قرب الثقاب من الأرضية فقرأ التالى :

(يوسف) ..

نظر إلى وجه الرجل فى ضوء اللهب فاستطاع أن يرى أنه فارق الحياة .. لقد رأى موتى كثيرين ولم يعد يجد صعوبة فى معرفة الموت حينما يراه .. لم يتبين مصدر الجرح بسبب الإضاءة الخافتة لكنه يشعر بأن صدر الرجل عبارة عن بركة دم كبيرة .. ولكن من فعلها ؟ لقد كان من رآه يجرى وحده .. فلو كان من يجرى هو القاتل فمتى دخل القتيل ؟ ولو كان من يجرى هو القتيل فأين القاتل ؟

انتابه الذعر عندما انطفأ العود .. فأشعل آخر بسرعة وركض إلى باب الشونة .. لا يعرف ما الذى جعله يفعل هذا لكنه صوب البندقية فى الهواء وضغط على زنادها ..

بوم !!

دوت الطلقة فى السكون ، فارتجف لها هو نفسه .. الوحش الذى نام أعوامًا لم يزل حيًا .. ولم يتصور قط أن صوته عال إلى هذا الحد ..

تعالى صوت نباح .. هذا كل شىء ..

سوف يترك الشونة الآن ويركض باحثًا عن عون .. لابد من إبلاغ المأمور .. لكنه الآن يحتاج أولاً إلى أن (يضبط دماغه) بحجر من المعسل ليهدأ .. هكذا جلس أمام النار وراح يعد الجوزة على عجل .. هذا آخر شىء أتصور أن يفعله .. لكنه فعله ..

الحقيقة أن (بسيونى) يتمتع بأعصاب قوية لو أردت رأيى ..

ـ 5 ـ

عند منتصف الليل بدأت (فاتن) تشعر بالقلق ..

لم يعد (زكى) من القرية بعد ، وهو سائق حذر ولا يحب أبدًا أن يعود فى الظلام .. باختصار هو لا يرى جيدًا فى الظلام .. وهى تذكر يوم رأته يقود السيارة بثقة نحو ترعة على جانب الطريق .. الظلام دامس واللون الأسود يغلف كل شىء .. وهو يدير المقود إلى اليمين حاسبًا هذه الظلمة امتدادًا للطريق .. استغرقت ثانيتين حتى فهمت أنه سيفعلها فصرخت بأعلى صوتها :

ـ « هذا .. ليس .. احترس .. إنها ترعة ! »

لحسن الحظ أحدثت كلماتها رد فعل فأعاد المقود إلى اليسار فى اللحظة الأخيرة ، ولو لم يفعل لغابت السيارة بهما وبالأولاد النائمين فى الماء ..

من لحظتها عرف وعرفت أنه لا يرى جيدًا فى الظلام .. نوع من (العشى الليلى) ربما .. لكنه تذكر الدرس جيدًا وصار من ألد أعداء القيادة الليلية ..

لماذا تأخر حتى هذا الوقت ؟ لماذا لم يتصل بها ؟

لقد نسيت كل الأسئلة التى كانت ستوجهها لـه .. كل الاتهامات ذابت .. لم يعد هنالك إلا قلق عميق أصيل .. وحش القلق الجالس فى صدرها فوق الحجاب الحاجز يمسك بقلبها ويمضغه فى تلذذ ..

ظلت تجوب الشقة فى قلق .. تفتح التلفزيون ثم تغلقـه .. تتسلى ببذور اللب قبل أن تلقيها فى القمامة .. تفتح المذياع ثم تغلقـه .. دخلت غرفة نـوم الأطفـال لتتـأمل الصغـيرين النائمين .. لا تراهما ملاكين إلا عندما ينامان .. فيما عدا هذا هما شيطانان رجيمان ، وقد خطر لها وهى تتأمل وجهيهمـا أنه مـن المستحيل أن يحدث شـىء لـ (زكـى) .. ما كانا لينامـان بهذا السلام .. ولكن .. فجأة بدأت تشعر بـالقلق يمزقها .. بل هى متأكدة من ان مكروهًا دهاه ..

اتجهت إلى المرآة وراحت تتأمل وجهها المرهق فى حقد .. وغمغمت :

ـ « هل فهمت يا حمقـاء ؟ إن اللـه يعـاقبك علـى إسـاءة الظن بالرجل .. سوف تحرمين منه ما دام لا يروق لك ! »

وشعرت برغبة فى البكاء .. وفى ذاتها يقين تام بأن هـذا حدث وهى لا تعرف ما هذا الذى حدث بسبب دخولها غرفته والتفتيش فى أوراقه ..

لو استطاعت ان تطير .. أن تعبر الأجواء حتـى تصـل للقرية لتطمئن عليه .. ثم استبد بها الغل .. قـالت لنفسـها : لو كان سليمًا بعد هذا كله ، وسبب بقائه هو أن الوقت طال به ، فلم يعد راغبًا فى القيادة ليلاً .. لو اتضح هذا فلسوف تنسفه نسفًا .. سيتمنى لو كان قد مات ..

تفتح التلفزيون فترى ممثلة مسنة تمسك بمنديل وتتكلم عن (المرحوم زوجها) باكيـة .. فيجـن جنونهـا وتغلـق التلفزيـون .. مـن أين يـأتون بهـذه الـبرامج المقززة ؟ إن التلفزيون يزداد تفاهة هذه الأيام ..

خرجت إلـى الشرفة فـى الليـل البـارد وراحـت تراقـب السابلة والظلام وأضواء الشارع .. سوف ترى السيارة فـى أية لحظة تتوقف أمـام البيت ويخرج منهـا (زكـى) .. ثـم يفتح الحقيبة الخلفية ليخرج السلة التى تحـوى البط والأرز المعمر والفطير السـاخن .. هذه هـى التقـاليد .. لابـد أن تحمله زوجة أخيه كل هذه الأشياء ..

لكن السيارة لم تظهر .. وبدأ القلق يغمرها أكثر فـأكثر .. كيف يكون حالها عندما يؤذن الفجر ؟؟ سوف تسمعه وهـى تضع الكسرولة على رأسها حتمًا .. لأنها ستكون قد جنت ..

فى النهاية اتجهت إلى الهاتف .. طلبت أخا زوجها المقيم بالقاهرة .. (شوكت) ..

جاء صوته المنزعج من الطرف الآخر .. ثم يصرخ فى طفل أن يخفض صوت التلفزيون ..

ـ « (زكى) لم يعد من القرية حتى الآن يا (شوكت) .. »

قال فى بساطة :

ـ « حجة الغائب معه .. لا تقلقى .. لعله أراد المبيت عند عمى (عبد الواحد) .. »

ـ « لم يفعلها قط .. ولو فكر أن يفعلها لاتصل بى .. »

المشكلة هى أن هناك جهاز هاتف واحدًا فقط فى القرية كلها .. لهذا فالاتصال بها (عملية) .. فعلاً عملية كبرى .. لا تنس أننا نتكلم عن أوائل السبعينات ..

بعد نصف ساعة اتصل أخوه فردت فى لهفة :

ـ « هيه ؟ هل وجدته ؟ »

وفى اللحظة ذاتها كان هو يسأل :

ـ « هيه ؟ ألم يعد بعد ؟ »

هكذا خاب أملها من جديد وتوترت أكثر .. قال لها وهو يحاول أن يبدو هادئًا :

ـ « الحقيقة أننى حائر .. عمى (عبد الواحد) يقول إنه فارقه فى الرابعة عصرًا .. هذا يعنى أنه فى الطريق .. »

ـ « طريق ؟ القرية على بعد ساعة إلا الربع لو كانت سيارتك حطامًا .. »

ـ « إن الرجال يعرجون على أصدقائهم أو يجلسون فى المقهى .. هذه أشياء تحدث .. »

ـ « إلا زوجى .. أنت تعرف أنه يفارق البيت كأنه يفارق روحه ، ويعود إليه فى أسرع وقت ممكن .. ليس هذا لجاذبيتى الشديدة ولكن بسبب ارتباطه الشديد بغرفة مكتبه وأوراقه .. إن أية دقيقة يمضيها بعيدًا عن مكتبه هى دقيقة ضاعت من عمره .. »

فكر قليلاً وسب أحد الأطفال الذين يأبون النوم .. ثم قال لها :

ـ « فى الحقيقة أريد أن أريحك لكنى قلق مثلك .. لا يوجد ما نفعله الليلة .. مستحيل أن أذهب للقرية للبحث عنه .. الصباح رباح والنهار له عينان .. »

قالت بصوت متهدج :

- «لكنى سأجن لو انتظرت حتى الصباح .. »

- «لا أعرف ما أقول لك .. لربما طرق الباب الآن .. »

شعرت بالأمل ينتعش فى صدرها كأنما كلماته سحرية ستجعل زوجها يطرق الباب فعلاً .. ووضعت السماعة فى رضا ..

لم تعرف أنها نامت .. لم تعرف أنها غابت عن الوعى وهى جالسة فى الصالة ..

فى المنام رأت أنها فى غرفة النوم .. كان الفراش محتلاً لكن ليس بجسد زوجها .. كان هناك كائن مخيف عملاق .. كائن أسود اللون يبدو أقرب إلى تمساح كبير يرقد وقد تغطى بالأغطية .. وكان طويلاً إلى حد أن ذيله كان يتدلى على الأرض .. تذكر أنها وقفت إلى جواره ومن الغريب أنها لم تكن خائفة .. فقط كانت تشعر بالحرج لأنها تريد أن تنام ولا تعرف كيف تخبره بكياسة بأن ينهض ليوسع لها مكاناً ..

دنت منه أكثر فوجدت لرعبها أن عينيه غير مغلقتين .. عينا التمساح الكبيرتان الزجاجيتان تنظران لها .. هنا فقط

قررت أن الوقت غير مناسب لهذا الطلب وقررت أن تفر من الغرفة .. فى هذه اللحظة دوى صوت جرس الباب فشعرت بالتوتر والقلق .. لا تعرف معنى ذلك لكنها كانت تريد الفرار بسرعة من صوت الجرس ومن الكيان المخيف الراقد ..

هنا فتحت عينيها فأدركت أن الفجر قد تسلل للمكان .. أين زوجها ؟ لم يعد بعد ..

وأدركت كذلك أن جرس الباب يدق بلا انقطاع .. إنها أحلام المنبه التى تدخل فيها المؤثرات الخارجية عالم الحلم .. بل يتم تلفيق الحلم بالكامل ليناسب هذه المؤثرات ..

نهضت فترنحت لفترة لأن ضغط دمها انخفض بسبب الوقفة المفاجئة ثم ثابت إلى رشدها ..

ركضت إلى الباب تفتحه وقد أنساها النعاس واجب الحذر ، فلم تسأل من .. ورأت أن الردهة مظلمة تماماً فامتدت يدها فى عصبية إلى مفتاح النور ..

وفى الضوء الخافت استطاعت أن ترى أن القادمين ضابطا شرطة ..

وكان يبدو عليهما الارتباك ..

- ٦ -

أنا أيضًا جربت صوت جرس الباب بعد منتصف الليل ..

خبرتى وخبرة أى إنسان مع هذه الأجراس سوداء غالبًا .. لهذا يجب أن أقول إننى جريت إلى الباب وقلبى يتواثب فى ضلوعى .. لم أكن نائمًا لحسن الحظ .. مستحيل أن أكون نائمًا فى الثانية صباحًا .. هذا شىء لا أفهمه عن الناس .. إنهم ينامون ليلاً ويستيقظون صباحًا .. أنا أسهر ليلاً وأعمل نهارًا وأنام عصرًا ..

أضأت النور على المدخل ، وقدرت أننى سأفتح الباب لأجد ثلاثة من رجال الأمن ينظرون لى نظرة بوليسية خالصة ، ثم يقول لى أحدهم إنه العقيد (أيمن حمدى) وإن معهم إذنًا بالتفتيش .. ثم يدخل أحدهم إلى غرفة مكتبى ليخرج الميكروفيلم أو المنشورات التى لا أعرف أنها عندى ، ثم ينظر لى فى حزم ويقول : نريدك عندنا يا دكتور بعض الوقت ..

فتحت الباب وأنا أرتجف لهذا الخاطر ..فوجدت ثلاثة من رجال الأمن ينظرون لى نظرة بوليسية خالصة ، ثم قال لى أحدهم إنه العقيد (أيمن حمدى) وأضاف :

- « نريدك عندنا يا دكتور بعض الوقت !! »

جف حلقى وتراجعت خطوة .. إنها النهاية إذن .. سأدفع ثمن كل جرائمى .. لكن ما الذى فعلته بالضبط ؟

قال أحدهم باسمًا :

- « لا داعى للقلق .. إنها استشارة لا أكثر .. »

استشارة فى هذه الساعة ؟

قال آخر وهو يخرج لفافة تبغ من علبتها :

- « الأمر جد مهم .. وقد اتصل العميد (عادل) من الإسكندرية وأصر على أن تكون معنا .. »

هكذا فهمت .. إن (عادل) مصر على توريطى .. لكن فى أى شىء بالضبط ؟ لابد أن الأمر يتعلق بهذه القصة .. قصة الحروف التى تكتب جوار جثث الموتى ، والتى أرجح أن القاتل هو كاتبها ..

هكذا تأهبت للذهاب معهم ثم تذكرت أننى عارى القدمين وما زلت بمنامتى .. هكذا طلبت منهم أن يتفضلوا إلى أن أبدل ثيابى ..

وارتديت ثيابى كما اتفق وأنا أفكر فى مبرر هذه الاستشارة الليلية .. كل شىء يمكن أن يتم فى الصباح ..

دعك من أن تكون هذه وسيلة لاعتقالى فعلاً .. وهذا يعيدنى إلى حالة البارانويا البوليسية السابقة .. سوف يقبضون على لأننى طفل شقى أضع إصبعى فى أنفى وأجذب ذيل القط ..

خرجت معهم إلى هواء الليل البارد .. الحى النائم الغافل فلا شىء يجذب الانتباه إلا تلك السيارة المدنية السوداء الواقفة أمام باب البناية .. فتح لى أحدهم الباب الخلفى فجلست .. وسرعان ما انطلقت السيارة .. ذلك الطريق الذى عرفته مرارًا من قبل .. إنهم متجهون إلى مديرية الأمن ..

★ ★ ★

كان دخان التبغ يعمى الأبصار فى غرفة اللواء (طلعت) .. وهناك عدة أقداح من القهوة وجو عام من الانفلات يوحى بأن جلسة طويلة تمت فى هذا المكان ..

قال لى اللواء وهو يتثاءب :

ـ « إذن ليس لديك ما تضيفه يا دكتور » .

قلت فى خجل :

ـ « إذا كان العميد (عادل) يعتقد أن لدى ما أضيفه فهذا

شأنه .. لكنى لم أزعم ذات يوم أننى خبير جريمة .. وفيما أرى فإن هذه الجرائم مجرد جرائم .. أى أنها لا تندرج تحت أية خانة خوارقية .. لكن لو أردت رأيى فهذا قتل طقسى Ritual يوحى بالانتماء لجماعة دينية ما .. إن انتزاع القلب بالتأكيد نوع من الطقوس .. »

قال وهو يطفئ لفافة تبغه ويسعل :

ـ « دخنت كثيرًا جدًا .. كح كح ..! جماعة دينية ما ؟ ليست مصر خليطًا من الأديان يا دكتور .. ليس لدينا إلا المسلمون والمسيحيون وجماعات نادرة مسالمة كالبهائيين .. لم يعد هناك يهود .. ليس لدينا يزيديون أو قراعون أو عبدة شمس أو عبدة (آمون) .. »

ـ « لا أتكلم عن جماعة دينية معينة .. أتكلم عن جماعة تعتقد أنها تخدم الدين بذلك .. باختصار أتحدث عن مخابيل »

فكر قليلاً ثم نهض إلى مجموعة الصور المعلقة على الجدار .. صور التقطها خبراء الطب الشرعى وتظهر تلك المجموعة من الجثث .. وكنت قد حفظتها من فرط ما عرضوها على ..

قال كأنما هو يكلم نفسه بصوت عال :

ـ «مخابيل .. نعم .. لا أحد ينتزع قلب ضحيته إلا إذا كان مخبولاً .. وفي كل مرة يكتب كلمة جوارها .. أنت تؤمن أن القاتل هو من كتب هذا .. »

قلت في ضيق :

ـ « هذا واضح .. لا يمكن أن يتصادف أن كل ضحية تقرر كتابة اسم قاتلها في كل مرة .. ثم إن وضوح الحروف واتجاه الكتابة يوحى بيد مختلفة صافية المزاج .. دعك من أن أنامل الضحايا كلها غير ملوثة بالدم .. »

كان هذا ما قاله لى (عادل) وقد تبنيته بشدة إلى درجة أنه صار رأيى الخاص .. وسوف أحطم أنف من يجادل فيه ..

عاد يكرر ما قلت شارد الذهن :

ـ « هم م .. غير ملوثة بالدم .. »

قلت :

ـ « أى أن أيًا من القتلى لم يكتب .. »

تثاءب وقال فى شرود :

ـ « هم م ..لم يكتب .. »

قلت لنفسى إن النعاس قد غلبه على الأرجح ما دام يكرر كل حرف قلته .. على كل حال لا أتوقع من البشر أن يكونوا مثلى فى ذروة نشاطهم العقلى فى الرابعة صباحًا .. لكن الأمر خطير .. جد خطير .. عندما يقرر لواء أن يسهر ليلته فى مديرية الأمن فلابد أن الأمر خطير ..

قال وهو يخط أشياء على ورقة :

ـ « حسن .. دعنا نرتب الأمور .. لدينا سلسلة من حوادث القتل يجمع بينها أنها تتم بانتزاع القلب من الصدر .. وأن هناك كلمة بالدم جوار القتيل ..

أول الضحايا وجدناه فى زقاق .. إن اسمه (مصطفى أبو زينة) .. باحث فى التاريخ فى جامعة (..) .. الاسم الذى وجدناه جواره هو (عباس) .. ثمة جثة أخرى وجدناها بقربه .. جثة بقال عجوز يدعى (جلال) .. يقول التشريح إن البقال توفى بنوبة قلبية .. يبدو أنه لم يتحمل الصدمة .. وهذا يجعلنا قادرين على استبعاده من القصة مؤقتًا .. »

تذكرت وجه عم (جلال) الطيب .. هذا الرجل بالذات كان يستحق ميتة أخرى .. لم اخبر أحدًا بأننى كنت أعرفه لكن موته سبب لى غصة لا بأس بها ..

واللواء يواصل السرد :

ـ «ثانى الضحايا وجدناه فى الإسكندرية .. اسمه ((يوسف) .. أبو الحسن) .. مدرس شاب فى كلية الآداب .. الاسم الذى وجدوه بجواره هو (زكى) ..

«ثالث الضحايا وجدوه فى قرية قرب القاهرة .. ثمة شونة حبوب هناك ، وقد رآه الخفير يركض ليتوارى فى المخزن فلما لحق به وجده ميتًا برغم أنه ينفى بشدة أن يكون قد رأى من يلحق به .. القتيل يدعى (زكى عبد الرازق) .. أستاذ بكلية الآداب قسم تاريخ .. الاسم الذى وجدناه بجواره هو ((يوسف) ..) .. »

«ما الذى نستنتجه من هذا ؟»

قلت وأنا أتثاءب :

ـ «إنها دائرة .. كل قتيل تجد بجواره اسم القتيل القادم .. هذا هو أسلوب (الكونت دى مونت كريستو) .. وعلى الأرجح يتعلق الأمر بالانتقام ..»

قال فى ضيق :

ـ «كما قلت لك قد درسنا هذا الاقتراح مرارًا .. لقد قتل

(زكى) بعد ((يوسف) ..) .. وبرغم هذا وجدنا الاسم بجواره .. ثم إننا لم نلق أى قتيل اسمه (عباس) .. لاحظ أن أول اسم قرأناه كان (عباس) .. »

قلت :

ـ «لهذا قلت (دائرة) .. لا يجب أن تقرأ اسم قتيل (قادم) .. يكفى أن تقرأ اسم قتيل (آخر) .. سوف تنغلق الدائرة بشكل ما .. »

ثم عقدت أناملى وقلت مفكرًا :

ـ «ثم هناك ذلك الطابع الأكاديمى المميز للضحايا .. كلهم يدرس أو يبحث .. اثنان لهما علاقة بكلية الآداب والثالث باحث .. هناك كذلك ذلك التخصص فى التاريخ .. لو كنت مكانكم لبحثت بعناية عن شخص يدرّس التاريخ فى الجامعة واسمه (عباس) .. أعتقد أنه الضحية القادمة بلا تردد .. »

نظر إلى أحد معاونيه فبادله ابتسامة من طراز (هؤلاء الهواة يضحكوننى) وقال :

ـ « هل تحسبنا لم نفعل ؟ هناك اثنان نتابعهما بعناية .. وفى رأينا أنهما فى خطر داهم .. أحدهما على الأقل .. »

قلت وأنا أتساءل فى سرى عن مدى ما بلغته استنتاجاته :

ـ « هكذا يمكن القول إن هناك قاتلاً متسلسلاً .. وهذا القاتل يحمل كل الأسباب التى تجعله يرغب فى قتل مدرسى التاريخ .. »

قال ضاحكًا :

ـ « لا ألومه كثيرًا على كل حال .. »

ـ « وهذا القاتل ككل القتلة المتسلسلين فى الواقع يحب أن يترك شيئًا يدل على خططه أو يدل عليه .. نحن لم نعتد هذا الطراز من القتلة فى مصر ، لكنهم فى الخارج يعرفون هذه الأساليب جيدًا .. لديهم مثلاً (زودياك) Zodiac الذى كان يرسل بطاقات لرجال الشرطة وما إلى ذلك .. يقولون إنها تتجاوز رغبة التفاخر الطفولى .. إنها رغبة ماسوشية فى عقاب الذات ، ورغبة فى أن يُضبط ..أى أنه يقدم بنفسه للشرطة الخيط الذى يقود إليه . لاحظ أننا نتكلم عن نصف مجنون .. »

ـ « ومن هذا القاتل ؟ هل هو تلميذ يمقت التاريخ ؟ أم هو مدرس جغرافيا ؟ »

ـ « أعتقد أن المراقبة اللصيقة لهذين (العباسين) سوف تقود إلى القاتل .. »

فكر قليلاً ثم نظر إلى ساعته وهتف :

ـ « ياه ! لقد أطلنا عليك يا دكتور .. آسف على إزعاجك لكنى قلق فعلاً .. لم نعتد مقابلة هذا الطراز من الجرائم فى مصر ، وبأى ثمن لا أريد أن أسمع عن الجريمة الرابعة .. »

ثم نظر إلى مساعده وقال :

ـ « اعمل على أن يوصلوا الدكتور إلى بيته »

وكانت لهجته تقول بوضوح (شكرًا على لا شىء) .. ولم أستطع أن ألومه .. لكن من قال لهم إن علمى ينفع هنا ؟ إن خبراتى مع المومياوات والمسوخ لا تسمح لى أبدًا بالتعامل مع قاتل حقيقى .. كأن ابنك مريض فتأتى له بأفضل مهندس إلكترونيات فى العالم .. وتندهش بعدها لأن هذا المهندس العبقرى لا يستطيع علاج طفل ..

وفى السيارة التى شقت شوارع القاهرة فى ضوء الفجر الوردى الشاحب ، خطر لى أن الأمر مقلق بحق .. إن ارتفاع

أسعار الكهرباء سوف .. ماذا أقول ؟ ما علاقة هذا بالموضوع ؟ آه ! إننى أخرف لا أكثر .. فقدت قدرتى على التفكير السليم لأن موعد نومى قد جاء ..

وعلى باب البناية شكرت السائق وصعدت إلى شقتى ...

سأنام .. سأنام .. سأنام .

ثم أنام ...

- ٧ -

لم تكن كبائن الهاتف العامة منتشرة فى ذلك الوقت كما نراها اليوم ..

لذا كانت الطريقة الوحيدة لإجراء مكالمة غير معروفة المصدر هو أن تتصل من عند البقال أو السنترال .. السنترال خطر لأن هناك من يسترقون السمع على مكالمتك .

لهذا فكر فى البقال .. وكان البقال الذى اختاره فى ذلك الشارع الذى يعج بورش الميكانيكا رجلاً عجوزًا غير فضولى شبه مكفوف شبه أصم .. هكذا لن يسند ذقنه إلى قبضته ويظل يتابع كل حرف تقوله .. ذات مرة كلم فتاة يحبها عند بقال من هؤلاء الفضوليين ، وقد ظل البقال يتابع كل كلمة بتمثيل التنهد ونظرات الهيام .. ولا مانع من (هأو) بعد كل مقطع ..

البقال الذى اختاره كذلك يضع الهاتف بالداخل .. هكذا لا تجد خلفك طابورًا ممن ينتظرون دورهم ويسترقون السمع على سبيل التسلية ..

فضولى جدًا ! من أهم صفات الشعب المصرى أنه فضولى بشكل لا يصدق !

هكذا شاعرًا بأنه (يهوذا) فعلاً طلب (سامح) الهاتف ودخل المحل .. ثم نظر حوله وطلب الرقم الذى حفظه عن ظهر قلب .. جاءه الصوت المهذب المنذر بالويل فقال بصوت راجف :

ـ « لدى بلاغ عن قضية تجسس .. أحسبها كذلك .. »

ساد الصمت للحظة ثم عاد الصوت المهذب :

ـ « لحظة واحدة . »

كان يستطيع الآن أن يرى بعين الخيال أجهزة التتبع تعمل .. أجهزة التسجيل تعمل .. الرجال الأشداء ينحدرون على الأعمدة الزلقة كما يفعل رجال المطافئ مسرعين نحو سياراتهم .. (طبعًا هذه فكرة طفولية لكنه لم يستطع إبعادها) .. يرى سيارة (الوسائل المساعدة) تنطلق وذلك القرص على ظهرها يدور فى جشع بحثًا عن مصدر المكالمة .. يرى مائة كاميرا وجهاز تنصت تزرع فى غرفته باللوكاندة فى هذه اللحظة بالذات قبل أن يفتح فمه .. يرى الوزير شخصيًا يصدر تعليماته ، واللواءات الأشداء ذوى النظارات السوداء يجتمعون بالساعات فى قاعات واسعة مكيفة .. والغرض أن يعتقلوه هو .. (سامح) .. والتهمة : الإبلاغ عن جاسوس يتضح أنه ليس كذلك !

أبعد عن ذهنه هذه الخواطر العصابية العصبية وركز على المكالمة ..

بعد قليل جاء صوت أكثر عمقًا وتهذيبًا يسأل من هو فقال :

ـ « أنا مواطن صالح .. »

ـ « ومن أين تتكلم أيها المواطن الصالح ؟ »

كان هذا تضييع وقت متعمدًا .. بالتأكيد هم يعرفون أين هو أو على وشك معرفة ذلك .. لهذا قال دون أن يبالى بالرد :

ـ « هناك صحفى يدعى (فايز قطب) .. صحفى فى جريدة (الأحداث الأسبوعية) .. إن درجه ملىء بالمنشورات العبرية وخرائط ورموز .. وهو متغيب منذ أسبوع أو أكثر عن العمل .. »

ساد الصمت .. ثم قال الصوت الوقور :

ـ « إنه صحفى كما تقول .. ربما كان هذا يتعلق بعمله .. »

قال وهو يتنهد كى لا يفقد الوعى :

ـ « عمله لا علاقة له البتة باللغة العبرية .. »

عاد الصوت يقول فى مرح مهذب :

ـ « ليكن يـا سيدى .. لكن ألا تريد أن تشرفنا بمعرفة اسمك ؟ »

ـ « قلت إننى مواطن صالح. »

ـ « إذن لم لا تمر علينا كى نحتسى القهـوة معًا وتحكى لنا بالتفصيل ؟ »

قال بصوت مخنوق :

ـ « لا .. شكرًا ! »

ووضع السماعة و استدار ليدفع ثمن المكالمة ويفر ..

فقط ليجد أمامه أربعة رجال أصغرهم وأرقهم فى حجم باب الغرفة التى تجلس فيها الآن ، والشـرر يقدح مـن عيونهم .. بينما البقال العجوز شبه الكفيف يشير له متهمًا وهو يرتجف :

ـ « إنه هو .. كان يتلفت حوله ويتكلم همسًا فى الهاتف ، ويقول شيئًا عن التجسس .. إنه جاسوس ! »

أدرك (سامح) ان هؤلاء هم الميكانيكية الذين ناداهم العجوز لنجدته .. ويبدو أن حماسهم الوطنى ملتهب ..

قال أحدهم :

ـ « الجاسوس الوغد! »

وقال آخر :

ـ « فلُيضرب بالأحذية ! »

ـ « بل نسلمه لرجال الأمن .. »

ـ « بعد أن يُضرب بالأحذية ! »

صاح (سامح) وهو يتراجع للوراء بصوت أراده حازمًا فخرج كالبكاء :

ـ « أنا لستُ جاسوسًا .. أنا أبلغ عن جاسوس ! »

ـ « هأو ! »

كان هذا هو درسه الأول عن سلوك الجموع الذى لا منطق له ، والذى وصفه (شوقى بك) بـ (ياله من ببغاء .. عقله فى أذنيه) .. لا فارق بين الجاسوس ومن يتكلم عن الجاسوسية ..المهم أنه كان يتكلم همسًا .. المهم أنه مريب .. المهم أنه يجب أن يضرب بالأحذية !

وقال له أحد الواقفين وهو يلوح بمفتاح إنجليزى مرعب :

ـ « ربما كنت صادقًا لكنك ستبقى هنا إلى أن يتأكد رجال الأمن من قصتك ! »

قال آخر وهو يلوح بـ (كوريك) عملاق :

ـ « وحتى يصل هؤلاء .. سنذيقه الويل .. »

ـ « نعم .. سيتمنى لو لم يولد! »

ـ « نعم .. نعم .. فليُضرب بالأحذية ! »

كما ترون ليس الرعب الوحيد فى العالم هو رعب مصاصى الدماء ..

ـ ٨ ـ

كان د. (عباس فوزى) قلقًا بحق ..

عندما يستجوبك رجال الشرطة ثم يقولون لك فى كياسة إنهم يعتقدون إنك الضحية التالية ، لا تشعر باطمئنان كبير .. سوف تموت ميتة شنيعة لكن لا تقلق .. هناك من سينتزع قلبك من بين الضلوع لكن لا تخف .. سوف يكتب بدمك اسم ضحيته التالية .. لكن لا تهتم بهذا .. نحن نراقبك ..

فقط لا تبتعد عنا .. لا تدعنا نفقد أثرك .. لا تسافر إلا إذا أخبرتنا ..

لم يكن يعرف إلا أن د. (زكى عبد الرازق) أستاذ التاريخ الذى أشرف على رسالته يومًا قد مات .. مات قتيلاً بطريقة بشعة .. وقد قال له رجال الشرطة إنهم يتوقعون بشكل كبير أن يكون هو الضحية التالية وأن يموت بذات الطريقة ..

صاروا يصطحبونه بسيارتهم من وإلى داره .. هناك مخبر يقف أمام باب بيته ومخبر يجلس على مقعد خارج غرفة المدرسين بالكلية .. لكن إلى متى ؟ سوف يملون وسوف يتركونه وحيدًا وعندها .. ..

كان (عباس فوزى) فى الخامسة والثلاثين بدينًا ذا عينين خضراوين مذعورتين ، وشعاره فى الحياة هو : لقد خرجوا ليظفروا بى .. من هم ؟ الجميع .. كل شخص وكل شىء .. ولهذا كانت وفاته واردة حقًا من فرط الهلع عندما عرف ما عرف ..

لم يكن متزوجًا لأنه يهاب النساء .. وقد أدرك أنه سيفقد قلبه الذى لم يستعمله قط ..

سأل رجال الشرطة إن كان بوسعه اقتناء مسدس لكنهم هزوا رءوسهم أن لا ..

هكذا كان يقضى أسود ساعات حياته فى العمل ، وأسود منها فى البيت .. حتى بدأ يتمنى أن ينتهى القاتل من عمله سريعًا ليريحه من هذا الجو (الكافكاوى) ..

قالت له (سوسن) زميلته فى العمل :

ـ «كل هذا الجو البوليسى يثير قلقى .. »

ثم شرد ذهنها وقالت :

ـ « هل تعتقد أنه يمكن أن يقتحم المكان حاملاً بندقية آلية ليفرغها فى كل الموجودين فى غرفة المدرسين ؟ »

نظر لها وابتسم .. هى فقط تريد أن تطمئن على حياتها .. لو كان القتل سيتم بطريقة محددة فبها ورحبت ، أما أن تتعرض هى للخطر كذلك فأمر يثير الرعب ..

النظارة الأنيقة فرنسية الطابع ذات الزجاج الشفاف ، والشعر القصير على طريقة (إنوك إيميه Anouk Aimée) بطلة (رجل وامرأة) معشوقة الشباب فى هذا العصر .. والشفتان المصبوغتان بالأحمر ، مع تلك اللمسة الراقية الأنيقة .. إنها بالضبط الأنثى التى تمنى لو فاز بها يومًا .. لكنه لم يجرؤ قط على الكلام معها ، ومن الواضح أنه لن يفعل .. كان إحساسها بحسنها مبالغًا فيه من الطراز الذى جعلها موسوسة تشعر بأن الرجال لا يفعلون أى شىء إلا ليلفتوا نظرها .. الأمر الذى يذكر (عباس) بأبيات الساخر الأعظم (بيرم التونسى) عن أنثى مماثلة تمشى فى الشارع فـ ....

إن كحّ واحد تقول قصده يشاغلنى
وإن تفّ راخر تقول عاوز يقابلنى
وإن بصّ راجل تقول مالك حتاكلنى
أما إللى يضحك ده يبقى ف هواها قتيل

قال لها فى صبر :

ـ « أحب أن أطمئنك أن أساليب القاتل دقيقة جدًا ولا تترك مجالاً للخطأ .. ثم أذكرك بأن هذا الموضوع سرى تمامًا .. لا أحد يعرفه أو هذا هو المفترض .. يقولون إنه كمين .. »

ـ « أتمنى أن أرى ذلك الأحمق الذى سيقع فى كمين كهذا ، بينما (بسطويسى) يجلس كالديدبان على باب الغرفة .. »

ـ « الحمقى كثيرون .. على فكرة اسمه (حسن) لا (بسطويسى) »

ـ « كل المخبرين اسمهم (بسطويسى) وكل رجال الأمن اسمهم (بسيونى) .. هذه قواعد صارمة لا تُخرق إلا على سبيل الاستثناء الذى يؤكد القاعدة »

ابتسم . ثم بدأ يشعر بذلك الحافز الذى يقاومه منذ خمس سنوات .. الآن صار فى حالة من التهور العاطفى والنفسى ربما دفعته إلى الجنون ..

قال لها وهو يزن كلماته :

ـ « ثمة شىء يجب أن أخبرك به .. »

قالت وهى تخط شيئًا فى ورقة :

ـ « يتعلق بـ ؟ »

ـ « بنا .. كنت أريد القول إن .. »

قالت فى ضيق :

ـ « أنا لا أبالى بهذه الأمور .. دعنا نتكلم عما هو أهم .. هل جلبت لى ذلك المرجع الذى .. »

هنا توقفت ونظرت إلى الباب فنظر إلى حيث نظرت ..

ذلك الرجل الضخم يطل برأسه من الباب ثم يتوارى .. لمحة واحدة لم تطل لكنها أثارت توتره ..

نظرت له متسائلة فبادلها النظر ..

نهض واتجه إلى الباب فلم يجد (بسطويسى) الذى هو (حسن) على مقعده كما هى العادة .. المقعد خال فلابد أنه ذهب يبحث عن (تعميرة) فى أقرب مقهى .. لقد شعر بالملل ..

قال لها وقد شحب وجهه :

ـ « لقد رحل .. »

ـ « وهذا الذى أطل من الباب ؟؟ هو ليس من أعضاء هيئة التدريس .. »

- « وليس طالبًا .. إنه أكبر وأكثر شراسة من أى طالب .. »

بدأ يعرق وبدأ يشعر بأن ساقيه تتخليان عنه .. هكذا اتجه إلى الباب فسألته متوترة :

- « إلى أين ؟ »

- « سأبحث عن (بسطوى .. أ .. (حسن) .. لابد أنه قريب .. يجب أن نعرف من هذا المتسلل .. »

- « لكن هذا خطر .. ربما كان هذا هو ما يريده بالضبط »
- « لا أعتقد .. إن الكلية مزدحمة والوقت نهار .. من الأفضل أن أتواجد وسط الزحام »

ولم يشغل باله بصددها لأنها على الأرجح ستعرف كيف تتصرف ، وهذا تطبيق حى لمقولة شاعر العامية العبقرى (يموت حبيبى ولا استهواش) ..

ومشى مسرعًا فى الممر بين الطلبة المتزاحمين ..فى نهاية الممر يوجد باب المصعد .. سوف يستقله إلى الطابق السفلى ويبحث عن المخبر .. إن لم يجده سيعود إلى داره ..

إنه يشعر بقلق لأن وجه ذلك الرجل الضخم الذى أطل من الباب لا يفارق خياله ..

انفتح باب المصعد فخطا إلى الداخل وفى اللحظة الأخيرة خطا أحدهم إلى الداخل معه ..

إنه يعرف هذا الوجه ..

ذات الوجه الأسمر والجسد الضخم .. ذات الملامح الغليظة والنظرة المرعبة المثبتة على وجهه بالذات ..

إنه هو .. وقد كانت لعبة محكمة حقًا .. لا يمكن أن تنفرد بأحد فى هذه البناية إلا فى دورة المياه أو المصعد .. والمصاعد يمكن إيقافها بين طابقين فى أى وقت تريد ..

الآن ينغلق الباب وهو يقف .. كطفل أمام هذا العملاق الفارع ..

فى يد العملاق حقيبة رثة تطل منها أشياء مرعبة .. وثياب العملاق ممزقة متسخة تنم عن حياة خشنة لا شك فيها ..

فتح فمه ليصرخ فلم يخرج صوت ..

هنا مد العملاق يده الغليظة نحوه دون أن ينطق ..

هكذا تكور (عباس) على نفسه على الأرض فى وضع جنينى وراح يبكى كالأطفال ..

* * *

وعندما انفتح باب المصعد والتف العـابرون ينظرون مـا هنـاك ، كـان (عبـاس) علـى الأرض يعوى بصوت يمـزق نياط القلوب ، بينما الكهربائى يضرب كفًا بكف ..

ـ « أقسم بالله إننى لم ألمسه .. قالوا لى إن كشاف غرفة المدرسين بالطابق الثـالث لا يعمـل .. وجدت أن هنـاك من يجلس فيها فقررت تأجيل الأمر ، ونزلت لأصلـح شيئًا آخر فى البناية ذاتها .. فجأة وجدته معى فى المصعد يركع على الأرض ويبكـى كالأطفـال .. أقسـم باللـه إننـى لـم أنطـق بحرف .. »

لم يفهم الواقفون شيئًا .. لكن الكهربائى ظل يردد وهو يضرب كفًا بكف :

ـ « يا فتاح يا عليم يا رزاق يا كريم .. لا أعرف من أين تتهاوى هذه المصائب فوق رأسنا !! »

مع الكثير من (حتودونا فى داهية اللـه يخرب بيوتكو) وأعتذر للتعبير لكنى أحاول نقل ما قاله حرفيًا ..

فى هذه اللحظة عـاد (بسطويسـى) الذى هو (حسن) بعد ما دخن حجرين .. وجد هذا الزحام حول مدخل المصعد فقرر ألا يضيع وقته بالانتظار .. إنها ثلاثة طوابق يمكن أن

يصعدها وثبًا .. إن هؤلاء القوم المترفين الأثريـاء يملكون الكثير من الفراغ والبال الرائق ، وعندهم متسع من الوقـت يسمح لهم بالتجمهر حول أبواب المصاعد .. أما هو فعليه مسئولية أمنية ثقيلة يجب أن يقوم بها ..

ـ ٩ ـ

قابلت (فايز) فى مكتبى بالكلية ..

لا أذكر اليوم طبعًا .. لا أذكر الساعة .. لا أذكر الظروف .. فقط أذكر أن (فايز) هذا كان فى منتصف العشرينات من العمر ، غير حليق الذقن .. مبعثر الثياب كأنه فى حالة نزول أبدى من الحافلة المزدحمة .. وأعتقد أنه لا يظفر بالكثير من المال من عمله لأن حذاءه بحاجة إلى حذاء ..

لو تغاضينا عن هذا وهو بالفعل تافه فأنا أعتقد أنه شاب ظريف ذكى .. ولسوف يحقق نجاحًا عظيمًا ما لم يتم تحطيمه كالعادة .. إن عدد هؤلاء الشباب المؤهلين للنجاح يثير ذهولى .. لو تركوا وشأنهم لامتلأ العالم بالناجحين .. وكما تعمل جهات ما على منع تكاثر ضفادع العلجوم فى أنهار استراليا كى لا تقتل التماسيح ، تعمل جهة ما على حفظ التوازن الطبيعى البيولوجى كى لا تموت التماسيح الحقيقية فى العالم على يد هؤلاء الموهوبين الأذكياء ..

صافحنى وقال :

ـ « أنا (فايز قطب) .. صحفى بجريدة (الأحداث الأسبوعية) .. »

ـ « (رفعت إسماعيل) .. أستاذ أمراض الدم بكلية طب (.....) .. »

ضحك فى حرج وقال :

ـ « لابد أن يكون أحد الطرفين غنيًا عن التعريف ، ما دام الطرف الآخر جاء للقائه .. »

قلت فى خبث وأنا أشير له إلى مقعد ليجلس عليه :

ـ « بالعكس .. أردت أن أذكرك بأنى طبيب أولاً .. بعض الناس ينسى هذا .. كلهم فى الواقع .. »

كنت قد أدركت أنه جاء لـ (رفعت) الآخر .. (رفعت) الذى يجيد الحديث عن تعويذات الكهنة القدامى ، وطقوس فتح التوابيت ، وطرق قتل مصاص الدماء .. هناك من يحسبنى متخصصًا أتقاضى راتبى من الدولة مقابل هذه الخبرة .. أحب أن يتذكروا أننى طبيب من حين لآخر .. طبيب لا بأس به ..

قال فى حياء :

ـ « فى الحقيقة أننى جئت فعلاً من أجل د. (رفعت) الآخر .. »

تنهدت فى غيظ وقلت :

ـ « خمنت هذا ما دام عنقك لا تحيط به العقد اللمفاوية ، وما دام أنفك لا ينزف .. وما دمت متورد الوجه .. أنت لا تنال تغذية جيدة لكنك سليم كالجرس .. ما هى مشكلتك يا بنى ؟ »

ـ « خطر لى إنك الشخص الوحيد المثقف الذى يمكن أن أجد عنده إجابة .. دعك من حقيقة أنك لا تكسب مليمًا من هذه الأمور وهذا يدعو للثقة وحقيقة أن عندك شجاعة الاعتراف بأنك لا تعرف .. »

حقًا .. النقطة الأخيرة هى الأهم .. لو أنك سألت بائع جرائد أو سباك عن (القينعور) لأخبرك به بلا تردد برغم أنه لا أنت ولا هو ولا أنا يعرف أى شىء عنه ..

ثم إنه فكر قليلاً وبدا أنه يجد عسرًا فى البدء .. لهذا سهلت عليه الأمر ونهضت لأغلق الباب .. هذا يعطيه فرصة لترتيب أفكاره ..

جريدة (الأحداث الأسبوعية) ؟ لابد أننى قرأت عددًا أو اثنين .. إنها من تلك الجرائد التى لا تعرف هدفها بالضبط .. أحيانًا هى سياسية ، وأحيانًا هى فكاهية تذكرك

بـ (البعكوكة) ، وأحيانًا هى مخصصة لمشاكل المرأة وكيف أن الرجال أوغاد ، وأحيانًا تتخصص فى فضائح الفنانات الملفقة غالبًا .. الخلاصة إنها جريدة ممتازة إذا كان الهدف من الجرائد هو تشرب الزيت المتخلف من قلى البطاطس .. حبرها ثابت بطريقة تثير الإعجاب وهو ما كانت تفتقر له صحف أكثر شهرة وأهمية ..

عدت لمقعدى وجلست .. فقال لى بطريقة أكثر تصميمًا :

ـ « الحقيقة أننى أردت استشارتك .. بصدد كتاب معين .. هل تعرف كيف وأين أجد نسخة من كتاب (إينوخ Enoch) ؟ »

فكرت فى الاسم قليلاً ثم تذكرت أين سمعته من قبل ..

قلت له وأنا أفتح درجى :

ـ « أعتقد أنك لن تجده فى مصر أبدًا يا بنى .. هناك نسخة شهيرة ترجمها (دى Dee) .. لكن ما الذى يقودك إلى هذه المتاهات العبرانية ؟ »

لم يرد وابتسم ، وإن سره على ما يبدو أننى لم أفتح فمى فى بلاهة لدى سماع الاسم ..

قال لى :

ـ « أعتقد أنك كذلك تعرف من يدعى بـ (ناتان غزة) ؟ »

عدت أكرر فى إصرار :

ـ « طبعًا .. قلت لك إن هذه متاهات عبرانية لن تخرج منها أبدًا ..أعتقد أنك مهتم بسحر الكابالا اليهودى kabala .. هذا سحر اختص به حاخامات اليهود أنفسهم ومن الصعب أن تتعلمه أو تجد من يعلمه لك .. كتاب (إينوخ) نفسه عبارة عن شفرة معقدة جدًا .. حتى لو وجدت ترجمة (دى) فلن تستفيد منها شيئًا .. »

قال فى تهذيب :

ـ « أنا أكتب مقالاً مهمًا عن هذا النوع من السحر ، وقد راسلت الكثيرين خارج مصر .. لكن كما قلت أنت لا أحد يتبرع بهذه الأشياء .. »

قلت له محذرًا وأنا أغلق الدرج :

ـ « خذ الحذر .. نحن فى حالة حرب مع إسرائيل .. لا تبعثر الغبار حول نفسك لأن اهتمامك العبرانى هذا قد يلقى حولك ظلال الشك .. إن تهمة التجسس ليست بعيدة عن أحد .. »

ـ « الفارق واضح بين من يدرس للعلم ومن يدرس للتخابر »

ـ « أتمنى أن أرى كيف ستشرح هذا لرجال أمن الدولة عندما يرون لديك أوراقًا امتلأت بالخرائط والرموز وقد كتبت بالعبرية .. ويعرفون أنك تراسل البروفسور (ديفيد فلان) أو (حاييم علان) بالخارج .. حدثهم وقتها عن سحر (الكابالا) .. نعم .. فهم رجال مرهفون يتوقون إلى بعض المرح .. »

قال فى حزم وهو يضغط على عضلات فكيه :

ـ « سأتذكر هذا .. شكرًا .. لكن أرجو أن تقدم لى العون .. »

فتحت الدرج ثانية .. فى المرة الأولى فتحته على سبيل تزجية الوقت والملل .. هذه المرة أفتحه لأخرج قصاصة ورق كتبت عليها بعض الحروف اللاتينية ..

ـ « هذا عنوان نصاب يهودى يعيش فى الولايات المتحدة .. يدعى أنه ساحر وأحيانًا أوشك على تصديقه ، لكنه يعرف أشياء كثيرة .. على الأقل يعرف أين يوجد كتابك هذا .. لا أرى ما يمنع من مراسلته لأنه مجنون شهرة ،

ويصبو لأن ينال أى نوع من التقدير بأى شكل .. لاحظ أن مراسلة الولايات المتحدة لن تبعث حولك أبخرة الشك .. »

أخذ القصاصة ونظر فيها وغمغم :

ـ « (سام م. كولبى) .. (نيويورك) ؟ شكرًا سيدى .. سأعرف كيف أفيد من هذه المعلومات .. »

ثم نهض .. وفكر حينًا توطئة لأن يقول :

ـ « هل تسمح لى بالتردد عليك لمزيد من الاستشارات ؟ »

ـ « أى وقت .. »

لم يكن هذا ودًا زائدًا فأنا ما زلت عدو العلاقات البشرية .. لكنى شعرت بعطف عليه .. حينما يسكن هذا العقل الذكى الطموح ذلك الواقع الفقير المحبط ، يكون الفتى جديرًا بالرعاية وربما بعض الحنو الأبوى .. يجب أن يوجد إنسان ما يصغى إليه وهو يبكى ، ويفسر له لماذا فشل بينما هو جدير بالنجاح ، ويشرح له لماذا كان العالم بهذه القسوة ..

★ ★ ★

لم أر الفتى إلا بعد أسبوعين واستغرقت عامين حتى أتذكر من هو ..

قال لى وعيناه تلمعان :

ـ « الأمور تتحرك بسرعة .. »

ـ « هل وجدت كتابك ؟ »

ـ « فى الحقيقة لم أعد بحاجة إليه .. لقد تجاوزته منذ زمن .. »

ثم نظر حوله وقال بحذر :

ـ « فى الحقيقة لم يعد هذا المكان مناسبًا للكلام .. لم تعد الجريدة مناسبة .. أنا لا أتردد عليها منذ فترة لا بأس بها .. لا أعرف مكانًا آمنًا يمكن الكلام فيه .. »

ـ « هذا من سوء حظك . »

قال وهو يواصل البحث بعينيه عن جواسيس :

ـ « هل لى أن أطمع فى خدمة ما ؟ »

ـ « هذا يتوقف على الخدمة .. »

ـ « أريد أن أقابلك فى مكان خارج المستشفى .. بعيدًا عن الناس .. يجب أن أطلعك على ما وصلت إليه .. »

فكرت فى ملل .. الحق إننى لا أرغب بتاتًا فى معرفة ما يعرفه .. لقد قابلت مليون شخص وصلوا إلى حل سر الكون وإلى ابتكار مذاهب فلسفية جديدة .. أحد هؤلاء كان يدعو لدين جديد قبل أن يدخل مستشفى المجانين الآن .. نعم .. لا أرغب البتة فى سماع المزيد .. ..

لكنه كان مصرًا كالكابوس .. هكذا لم أجد ما أفعله أو أقوله ..

قال لى :

- « لن أتعبك معى .. هناك مدرسة تحت الإنشاء بقرب هذا المكان .. البناية خالية منذ فترة ولا توجد بوابة .. سوف نلتقى هناك .. »

قلت لنفسى إن هذا الفتى مخبول فعلاً ..

وسألته فى غيظ :

- « ألا ترى أن نلتقى فى المقابر ؟ سيضفى هذا بهجة لا شك فيها .. »

قال بحرج :

- « يؤسفنى بشدة أن أطلب هذا منك .. لكن صدقنى لدى أسباب قوية جدًا سوف تعرفها عندما نلتقى .. »

- « ولماذا لا تختار أية كافيتيريا ؟ »

- « الأسباب تتضح فيما بعد كما قلت .. »

حككت ذقنى مفكرًا .. ثم فتحت الدرج وأغلقته على سبيل العصبية .. وسألته :

- « متى تريد أن نلتقى ؟ »

- « إن كان هذا غدًا لغدوت لك شاكرًا .. »

مددت يدى إلى المفكرة الصغيرة لأعرف مواعيدى فقط لأجد أننى أضعتها .. منذ اقتنيت مفكرة المواعيد هذه لم أجدها فى أية مرة بحثت فيها عنها .. لقد ضاعت نحو مائة مرة حتى الآن ..

قلت له :

- « لا بأس .. ليكن هذا عند الظهر .. أرجو ألا يكون النيل شرطًا عندك .. »

قال ضاحكًا :

- « أما هذا فلا .. الأمر متروك لكم .. »

وهكذا افترقنا .. وقدرت أننى أخطأت عندما كنت ودودًا ..

هكذا سأحتاج إلى قدر زائد من العنف وقلة الذوق لأتخلص منه .. وهو ما كان يمكن تجنبه بقدر قليل منهما فى البداية ..

إلى الغد إذن ..

★ ★ ★

عند الموعد توجهت إلى تلك المدرسة القريبة من المستشفى ..

إنها مدرسة تحت الإنشاء منذ نعومة أظفارى .. لسبب ما يعملون فيها إلى الأبد .. جدران من القرميد الأحمر .. بقايا مواد بناء ورمال .. ربما قط أو قطان أصيبا بصدمة عصبية عندما رأيا بشريًا هنا .. يبدو أن البعض كان يستعمل هذا المكان كدورة مياه ، لكن هذا منذ سنوات لحسن الحظ .. ثم لا شىء .. ..

أنت سخيف يا (رفعت) .. سخيف فعلاً .. هذا المكان لا يزيد على مقلب أو ..

أو فخ ؟!

لكن أى فخ ؟؟ ولماذا ؟ إلا لو افترضنا أن الفتى مخبول ـ وهذا وارد ـ أو يسخر منى ـ وهو احتمال ضعيف ـ .. لا يبدو لى مولعًا بالسخرية من الشيوخ ..

مشيت وسط المكان الخالى . لقد رأيت ومشيت فى أماكن أسوأ .. دعك من أننا عند الظهيرة ونور الشمس يبدد كل خوف أو قلق .. من الصعب أن أتصور كارثة تحدث لى هنا ..

أين الفتى ؟

نظرت لساعتى .. لقد مرت عشر دقائق .. معالم المقلب تتضح لى .. سوف أنتظر خمس دقائق أخرى ثم أرحل .. لا توجد دروس مجانية لكنى على الأقل لم أضرب أو أهان أو أدفع مالاً .. وهذا شىء نادر هذه الأيام ..

صوت الأنين هذا ..

أنا موقن أن هناك صوت أنين .. ولكن من أين ؟

مشيت ببطء نحو ذلك الجدار الذى يشبه بناية غير مسقوفة .. إن الصوت آت من هنا ..

مشيت بحذر .. متوقعًا أن أجد نفسى أمام كلب جريح غاضب .. لكن الفضول قتل القط فى كل مكان وزمان ..

ما هذا ؟ فى البدء خيل إلى أننى أرى كومة من الثياب ألقاها أحدهم وهذا شىء وارد هنا ثم دنوت أكثر فعرفت

أنها ليست كومة ثياب .. أنا أعرف هذا القميص الذى لا يتبدل وهذا الحذاء الأوحد ..

إنه (فايز) .. هو بالذات ..

وبنظرة طبيب قدرت أن الأمر قد انتهى .. هذا الفتى الواعد الملىء بالحيوية .. لكن ما أثار هلعى بحق هو سبب الوفاة .. لقد انتزع قلبه !

وقفت مذعورًا .. أين النيتروجلسرين ؟ أين ؟

لقد تكلمت كثيرًا فى هذا الموضوع .. ناقشته ورأيت صوره .. لكن لم أتصور أن أراه رأى العين .. ثم ما دخل هذا الفتى .. هذا الصبى الذكى بالقصة ؟

« لم نعتد مقابلة هذا الطراز من الجرائم فى مصر ، وبأى ثمن لا أريد أن أسمع عن الجريمة الرابعة .. »

بدأ النيتروجلسرين يعمل وتصاعد الدم يخفق فى رأسى .. شعرت بدوار شديد .. يجب أن أضيف الأسبيرين إلى علاجى ، وإلا فإن جلطة الدماغ ستنضم إلى قائمة أسباب وفاتى التى أجمعها كهواة الطوابع ..

دنوت من الجثة أكثر ..

لو كان الأمر صحيحًا لوجدت كلمة بالدم إلى جوار الجثة .. لكن .. اسم (فايز) لم يُكتب من قبل مطلقًا فما معنى هذا ؟

لا توجد كلمات .. فقط بركة دم ..

وارتجفت واستندت بظهرى إلى الجدار .. لم تُكتب كلمات .. معنى هذا أنها لم تُكتب بعد !!

ومعنى هذا أن القاتل هنا .. لم يجد الوقت الكافى ليرحل !

أين هو ؟ كيف أقاومه ؟ ما قدرتى على مقاومة قاتل يستطيع انتزاع قلب إنسان من صدره ؟ ربما لو تظاهرت بفقدان الوعى .. تلك الحيلة القديمة تنجح دائمًا معى ..

أين هو ؟

وفجأة وقعت عيناى على الجدار ..

الآن عرفت من كتب تلك الكلمات جوار جثث القتلى ..

بخط واضح رأيت الدم يجرى فى اتجاه مستحيل فيزيائيًا ليكتب بوضوح تام :

(فتحى) ..

إن أحدًا لم يكتب تلك الكلمات ..

الكلمات هى التى كتبت نفسها !

الجزء الثانى

كتاب الأسماء

مخطوطات ؟ إن العالم يعج بها .. هناك مخطوطات فى كل مكان .. حتى الشيخ (عطوة) نصاب قريتك الذى يزعم قدرته على فك العمل يملك مخطوطات .. لو أن رجلاً وجدها بعد مائتى عام لملأ المنشورات العلمية صخبًا عن اكتشافه المهول ..

-١-

قال (عادل) :

- «لعل الجرائم ستستمر .. لعل القتيل القادم يدعى (فتحى) وسوف تجد بجواره اسم (عباس) .. »

قلت له فى غيظ :

- « هل رأيت ؟ اسم (عباس) ذكر من قبل .. هكذا لا يستقيم منطق الجرائم .. لقد لاحظنا أن الترتيب دقيق تقريبًا .. كل قتيل ينذر بالاسم القادم .. باستثناء الأول .. ولو قرأت اسم (مصطفى) جوار جثة الفتى لكان هذا أقرب إلى المنطق .. هذا يغلق الدائرة كما يقول كتاب السيناريو » ..

أشعل لفافة تبغ وقال :

- « أو لو كان قتيل أمس يدعى (عباس) .. لاستقامت الأمور »

من جديد وبالقلم (الفلوماستر) الغليظ الذى أحمله ، رسمت على الخزانة المعدنية جدول القتلى :

القتيل	ما كتبه الدم
مصطفى	عباس
يوسف	زكى
زكى	يوسف
فايز	فتحى

قال لى فى ضيق :

ـ « هيه ! هذه القذارة لن تزول من على الخزانة المعدنية .. أنت تتلف أثاث الحكومة .. »

قلت شارد الذهن وأنا أتأمل الجدول :

ـ « جرب استعمال قطنة مبتلة بالكحول .. دعنا من هذا وقل لى .. هناك اسمان كتبهما الدم ولم يُقتلا .. (عباس) و(فتحى) .. »

قال :

ـ « هذا ما أقصده .. سوف يقتلان قريبًا .. وعندها تستريح أنت نفسيًا .. »

ثم أضاف وهو يمد يده ليتناول قدح القهوة الذى كاد يبرد :

ـ « الحقيقة أن عقلك لم يعد على ما يرام .. أنت موشك على الخبال .. أعنى أن خبالك ازداد عما كان »

ـ « لا أعتقد هذا .. سوف أعرف يوم أجن .. إننى أراهن على هذا .. حتى اللحظة لا يوجد جزء يعمل بكفاءة فى جسدى إلا كليتى وعقلى وربما بعض العقد اللمفاوية هنا وهناك .. »

ـ « وكلامك عن الدم الذى يكتب بنفسه ! »

جلست إلى الأريكة الجلدية .. الحقيقة أننى لا أصدق إننى رأيت ما رأيت .. والمشكلة أنه لا يوجد شهود .. دعنى أحك هذه القصة فى أى مكان ، ولسوف تكتشف أن قميص الأكمام ليس بعيدًا عن أى منا ..

قلت فى صبر :

ـ « (عادل) .. لا يوجد شهود .. لا أستطيع إثبات كلامى .. لكن الدم هو الذى كتب هذه العلامات بنفسه .. أقسم بالله العظيم أن هذا حدث .. »

أشار لعقله ولفافة التبغ تتدلى من فمه وقال :

ـ « صادق .. أعرف هذا .. لكن هناك فارقًا بين ما رأيته بعينيك وما حدث فعلاً .. أنت تعرف ما أعنيه .. المجنون الذى كانت البعوضة تخبره بأنه (نابليون) ليس كاذبًا .. لقد سمعها فعلاً .. المشكلة هى : هل فعلت البعوضة ذلك ؟ »

قلت وأنا أتناول قهوتى :

ـ « لكن هناك شواهد تاريخية على هذه الظاهرة .. »

نظر لى مندهشًا .. ورفع حاجبيه طالبًا معرفة ما هو أكثر .. فقلت :

ـ « إن ظاهرة الـ Haemography معروفة ومدونة .. لكن لم يكتب عنها الكثير .. ثمة أشخاص يكتب دمهم كلمات عندما يموتون .. »

حاول نطق الاسم :

ـ « هيمو .. هيمو .. »

ـ « هيموجرافى .. باليونانية (هايما) معناها دم .. (جرافين) معناها كتابة .. الكتابة بالدم .. لكن الكلمات لا تكتب على الجدار جوارهم أو على الأرض .. يقال إنك لو

مسحت جروحهم فإن الدم على المنشفة يتجمع فى كلمة ذات معنى أو شكل مفهوم .. »

ـ « وماذا يكتب الدم ؟ »

ـ « هذا يخضع لتفسير من يقرؤه .. هناك قصة مرعبة شهيرة عن أشخاص كان دمهم بعد موتهم يكتب GODISNOWHERE وهى كلمة خبيثة .. يمكن قراءتها كما يلى GOD IS NOWHERE أو GOD IS NOW HERE .. حسب القصة تحدد طريقة قراءتك للجملة موقفك الإيمانى .. ضعيفو الإيمان يقرءونها بالطريقة الأولى .. راسخو الإيمان يقرءونها بالطريقة الثانية .. »

قال ضاحكًا :

ـ « آه ! مثل تلك الأشكال التى يعرضونها عليك فى الاختبارات النفسية .. بقعة حبر يراها البعض مزهرية ويراها البعض وجهين متقاربين ويراها البعض راقصة باليه .. وهذا يحدد للطبيب ما إذا كنت تحمل فى نفسيتك لصًا أو سفاحًا أو مجرد وغد آخر .. »

ـ « لقد فهمت وجهة نظرى .. »

عقد يديه تحت ذقنه وسألنى فى حزم :

ـ « وبأية طريقة تقرأ تلك الأسماء التى كتبتها دماء الموتى ؟ »

ـ « لا أعرف .. فقط أعرف أنه لا يوجد شىء سهل أو واضح فى الحياة .. من السهل أن تبدو الأمور واضحة منطقية (غالية) فى القصص .. لكن فى الحياة يصير الغموض اسم اللعبة .. »

ومسحت بمنديلى الخزانة ثم نظرت له .. فعلاً هذا اللون ثابت .. إنه باق للأبد ..

قال لى فى غيظ :

ـ « هل ترى ؟ لن يزول هذا .. »

ـ « يمكنك أن تدهن الخزانة بلون آخر .. هذا اللون الرمادى الحكومى كئيب على كل حال .. »

سألنى (عادل) من جديد :

ـ « ما الذى يجمع بين هؤلاء الذين ماتوا ؟ »

قلت له :

ـ « سألونى فى القاهرة فى مديرية الأمن عن هذا .. خطر لنا إن العامل الذى يجمع هؤلاء هو نوع من التخصص الأكاديمى .. أكثرهم له علاقة بدراسة التاريخ .. المكان الجغرافى لا علاقة له .. الحالة الاجتماعية والسن لا علاقة لهما ..لهذا راقبوا كل (عباس) تنطبق عليه هذه الشروط .. من الواضح أن هؤلاء بخير حال .. نلاحظ هنا الوجه الجديد .. ذلك الصحفى الشاب المتحمس الذى لم يعد كذلك ، نجد أنه ليس أكاديميًا لكنه مهتم بشدة بذلك الكتاب اللعين (إينوخ) ، وهو يريد أن يعرف شيئًا عن (ناتان غزة) و .. من جديد تتكرر نغمة الاهتمام بالتاريخ .. إذن نحن أمام قاتل تسلسلى يقتل المهتمين بالتاريخ ! »

قال (عادل) باسمًا وهو يبحث فى درجه عن شىء :

ـ « بالمناسبة .. قبل مقتل الفتى بأيام اتصل أحد أصدقائه فى العمل بأمن الدولة .. كان يشك فى أن (فايز) يمارس نشاطًا تجسسيًا ما لأنه وجد فى درجه أوراقًا عليها كتابة عبرية .. »

أدهشنى الخبر .. لم أتوقع أننى بارع إلى هذا الحد .. لقد أنذرت الفتى من سوء الفهم .. قلت :

ـ « هذا يتسق مع ما قاله لى .. إنه بالفعل مهتم بالسحر العبرى أو هذا ما فهمته .. وأين هذا الصديق؟ »

ضحك (عادل) كثيرًا .. ثم قال :

ـ « للأسف سمعه بعض الميكانيكية المتحمسين وحسبوه جاسوسًا .. كان يتكلم عن جاسوس فاعتبروا هذا دليلاً على أنه هو نفسه جاسوس .. لقد حولوه إلى عجين .. إنه بخير الآن لكن هذا جعلنا نعرف من هو وكان يرغب فى أن تكون المكالمة من مجهول .. »

فكرت فى الأمر قليلاً ثم سألته :

ـ « والأوراق ؟ »

ـ « لقد تم فحصها .. يقول رجال المباحث إنها لا تمت بصلة للتجسس .. إنها تمت للسحر الأسود والهراء المماثل .. إنها فى مديرية الأمن بالقاهرة الآن ويمكن أن أرتب لك الحصول عليها .. »

ـ « سأكون لك شاكرًا .. »

وغادرت مديرية الأمن .. سأتناول غدائى فى مطعم سمك شهير هنا فى الإسكندرية ثم أعود للقاهرة .. الحقيقة أن

علاقتى بالقضية انتهت .. لقد أقحمت فيها إقحامًا لكن من الحكمة أن أفر عندما تسنح لى الفرصة .. (عادل) لن يطلبنى على الأرجح وكذلك اللواء (طلعت) ..

أنا حر .. حر تمامًا ..

-٢-

الآن ننتقل إلى أحداث وقعت منذ عامين بعيدًا عن مصر ..

كيف عرفتها ؟ هذه تفاصيل سوف أحكيها فيما بعد ، لكن يجب أن أخبرك أن د. (زكى) كان يحتفظ بمذكرات دقيقة عن كل شىء .. إنه رجل دقيق فعلاً حتى أنه كان يضع علامات صغيرة فى أسفل كل صفحة ، عرفت فيما بعد أنها مرات دخول الحمام ..

نحن الآن فى النمسا .. للدقة نقول إننا فى (سالزبوج Salzburg) المدينة النمساوية التى تقع فى الغرب ..

إن النمسا عبارة عن حلم بصرى وسمعى جميل لا يمكن وصفه ، ولا تعبر عنه إلا موسيقا (شتراوس Strauss) .. دعك من أن (سالزبورج) هى البلد الذى أنجب العبقرى (موتسارت Mozart) .. معنى (سالزبورج) هو (قلعة الملح) .. لأن الملح كان ذا أهمية اقتصادية قصوى لهذا البلد .. نتحدث عن الماضى طبعًا ..

هذا الذى يلبس معطفًا وقبعة وجه مألوف لنا .. إنه د. (زكى عبد الرازق) أستاذ التاريخ الذى قابلناه من قبل ..

لقد مات فى تلك الشونة كما نعرف ، لكننا هنا نلقاه منذ عامين فى واحدة من أزهى فترات حياته وأكثرها خصوبة .. يبدو نمساويًا أكثر من النمساويين كما ترى لأنه اندمج فعلاً فى هذا العالم ..

الفتاة الشقراء التى تتعلق بذراعه ليست زوجته كما تلاحظون .. إنها (جابى) صديقته .. بالنسبة لى هى أقرب إلى سحلية تم سلخها أو صورة سلبية لامرأة جميلة .. لكنه يراها جميلة وهذه مشكلته على كل حال ..

لماذا هو هنا ؟ مهمة علمية طبعًا .. إن راتب رهبان العلم هؤلاء لا يسمح بالسياحة .. وكان قد حصل على درجة الدكتوراه من إنجلترا فى ظروف كئيبة ، لهذا يمكن القول إنه لم ير أوروبا قط ..

عرف (جابى) لأنها شقيقة أحد زملائه النمساويين ، وكانت مطلقة شابة لطيفة المعشر تطوعت لأن تكون مرشدته فى هذا البلد الساحر ، وبفضلها صار يتكلم الألمانية كأهلها .. هنا تحدث العقدة الشهيرة التى عبر عنها (يحيى حقى) فى (قنديل أم هاشم) حيث لم يعد الرجل يرى فى العالم إلا نمسا كبيرة .. هنا التحضر والرقى والجمال والعلم ..

اختلط حب البلد بحب الفتاة فلم يعد يعرف هل يحب النمسا لأنها بلدها أم يحبها لأنها نمساوية .. أنا مررت بتجربة مشابهة فى أسكتلنده لكنى احتفظت لحسن الحظ بفلاح الشرقية الموجود تحت جلدى .. أجسر على القول إننى أحببت (ماجى) برغم أنها أسكتلندية .. لاحظ هذا .. (برغم) وليس (لأن) ..

كانا الآن يمشيان جوار نهر (سالتساخ) حيث تطل عليهما تلكم القلعة الرهيبة .. يمكنك أن تكون مصورًا بارعًا بسهولة هنا .. وجه الكاميرا إلى أى شىء واضغط الزر .. تحصل على كارت بوستال يمكن أن تبيعه ..

لكن د. (زكى) كان قلقًا .. فالمهمة التى جاء من أجلها لم تنجز كلها .. ثمة جزء أكاديمى خاص بدراسة تاريخ آل (هابسبورج Habsburg) وقد انتهى ، أما الجزء الآخر فمهمة كلفه بها أستاذه البريطانى (تشارلز هاتون) .. إن (هاتون) لن يستطيع القدوم هنا لهذا كلف صاحبنا بهذه المهمة .. والرجل على كل حال فى السبعين .. ومن الواضح أنه لن يرى العام الجديد ..

لقد اتصل به ليلة السفر فى مصر وقال له :

- « على الأقل سأموت مستريحًا .. أنا أثق بك يا (زكى) .. »

ثم ابتلع ريقه بصوت مسموع عبر الخط الهاتفى وقال :

- « الرجل يدعى (ماتيو) .. (ماتيو درنشر) .. وهو يعرف كل شىء .. سوف يساعدك ويخبرك بما ينبغى عمله ، ولا تنس أنه يهودى .. أعتقد أن هذا لن يؤثر عليك .. »

قال (زكى) العبارة التى قالها مرارًا :

- « إلى أن يقرر أن يكون صهيونيًا .. »

- « أعرف هذا .. على كل حال سوف يصدع رأسك بالكلام عن المحرقة وتاريخ أجداده وأمه التى هلكت فى المعتقلات .. لكنه مفيد وسوف يقودك إلى كل ما تريد .. وداعًا »

وكان (زكى) الآن قلقًا لأن (درنشر) هذا لم يظهر .. إنه يعرف الفندق بالتأكيد ويستطيع الاتصال به فى أى وقت .. لهذا لا شىء فى وسعه .. المشكلة هى أنه بقى يومان على موعد العودة لمصر .. لقد انتهت المهمة العلمية ..

السبب الثانى لقلقه هو أنه أدرك أنه لم يعد ينتمى بأى شكل إلى (فاتن) أم العيال .. بصعوبة كان يتذكرها ..

ولسبب ما لم يكن يستعيدها إلا وهى جالسة على الأرض تلف أصابع (المحشى) .. محشى الكرنب الذى يترك رائحة سلق كريهة فى البيت ، مع تخمة تدوم حتى المساء .. بشعرها المنكوش جالسة على جريدة فرشتها فى الصالة أمام المطبخ .. البصل يجعل أنفها يسيل فتمسحه من حين لآخر فى كمها وقد صارت عيناها بلون الطماطم .. وعيناها على التلفزيون فى نهم لتعرف ما إذا كان (أحمد رمزى) سيعود إلى (لبنى عبد العزيز) أم لا ..

يحدثها عن دراسته فتتكلم عن الطماطم .. يحدثها عن الشعر اللاتينى فتحدثه عن أم (وفاء) التى تحقد عليها ، وتلتمس لها الأخطاء .. هذه امرأة لا تعرف (فيرجيل) ولا يهمها أن تعرف أى شىء عن (فردريك الثانى) ولا ترتجف لدى سماع المذبحة التى قضت على آل (رومانوف) ..

صحيح أنها زوجة باسلة .. صحيح أنها تحفظ بيته وترعى أطفاله .. صحيح أنه لم يأكل إلا الأفضل ولم يلبس إلا الأفضل .. صحيح أنها تدبر مصاريف البيت سواء كان معه جنيه أو ألف .. لكنه لا يستطيع أن يبعد عن ذهنه وجه (جابى) القسيم .. عيناها الذكيتان .. لو أن لأوروبا وجهًا

لكانت هى (جابى) .. والأجمل أنها لا تبدى على الإطلاق أنها متضايقة من سنه المتقدمة أو قبحه .. تحدثه عن (شتراوس) فتحمله إلى آفاق بعيدة ، وتتكلم عن (نيتشه) فيشعر بأنه جالس معه ، ثم تأخذه إلى الكونشير لتسبح روحه مع (باخ) .. عندها لا يستطيع أن يزعم أن محشى الكرنب أفضل ..

لقد أخطأ الطريق .. لو جاء هنا منذ عشرة اعوام لكانت (جابى) تدعى (فراو عبد الرازق) ، ولكانت (فاتن) متزوجة من رجل يعشق محشى الكرنب ..

يعرف ما سيحدث حينما يعود لمصر .. لقد انتهت (فاتن) من حياته تمامًا ولن تعود .. سوف يغلق باب مكتبه عليه ويدرس ويكتب ويدرس ويكتب إلى أن يموت .. لن يتبادل معها إلا عشر كلمات على الأرجح بقية حياته .. لن يطلقها لأن هذه خطوة تحتاج إلى شجاعة كاسحة وهى لم ترتكب ذنبًا يبرر هذا .. ذنبها الوحيد أن (جابى) أجمل وأروع وأذكى وأرشق وألطف وأسرع دعابة وأكثر أناقة .. وأنها نمساوية ..

الأسوأ هنا أن مصر كلها لم تعد فى ذهنه .. عمه

(عبد الواحد) .. القرية .. أخواه (شوكت) و(جودت) .. الأرض .. الجامعة .. د. (غسان) .. شارع العباسية .. كل هذه ذكريات بعيدة جدًا فلو كان يؤمن بمذهب التناسخ لحسب أنها أمور مرت به فى حياته السابقة على كوكب الأرض .. تلك الحياة التى كوفئ عليها بأن بدأ حياة جديدة هنا ..

كانت أزمة ضمير .. لهذا لم يكن سعيدًا على الإطلاق ..

* * *

ظهر (درنشر) عصر اليوم قبل الأخير ، بينما (زكى) ينعم بنوم القيلولة الذى يستيقظ منه فى السادسة .. لهذا نزل إلى لوبى الفندق متعكر المزاج ..

كان (درنشر) يلبس معطفًا رثًا وله ملامح يهودية واضحة .. ثمة تعبير من الشعور بالذنب على ملامحه كأنه ارتكب جرمًا فى حقك وجاء يعترف ..

ـ « لقد اتصل بى البروفسور (هاتون) .. أنا تحت تصرفك .. »

وتصافحا .. سأله (زكى) :

ـ « البروفسور يعتقد أنه موجود فى قلعة (مونشبيرج) .. »

هز الرجل رأسه ضاحكًا وقال :

ـ « هذه القلعة تطل على نهر (سالتساخ) وكانت مركزًا تجاريًا للرومان يدعى (يوفافوم) .. إنها مزار سياحى ولا يمكن أن يترك أحدهم شيئًا كهذا فيها .. »

ثم هز رأسه ونظر حوله بحذر وقال :

ـ « مكاننا هو منطقة (أوشر هورن) .. هناك كهف .. هذا مكان يسمح بإخفاء الأشياء »

ـ « متى نذهب ؟ »

ـ « الآن .. إن معى سيارة »

كان هذا آخر ما يتوقعه (زكى) الذى إن لم ينم عصرًا تزلزل كيانه بالكامل .. لماذا لا ينتظر الرجل ليلاً خاصة أنه تأخر بما يكفي؟ .. ثم قدر أن السبب واضح .. الرجل لا يريد أى نوع من التخطيط .. يريد عشوائية كاملة حتى لا يكون مراقبًا ..

هكذا غادر الفندق .. كانت هناك سيارة عتيقة صغيرة تقف فى ساحة الانتظار .. فركبها متوجسًا إلى جوار (درنشر) هذا ..

وتنطلق السيارة عبر البلدة الجميلة متجهة إلى (أوشر هورن) ..

فى الواقع لم يكن (زكى) مهتمًا بالأمر على الإطلاق ، لكنه تكليف من أستاذه .. وهذا التكليف لا يمكن أن يمر دون توتر .. إن (تشارلز هوتون) رجل دقيق مهذب ، وإلى حد ما هو مدين له للأبد لأنه أجاز أطروحته بعد ما حسب أنه سيموت دون أن يحصل عليها .. ثم إن (زكى) كان مصابًا بعقدة (الخواجة) لهذا لم يتحمل أن يتوسل له هذا الأستاذ الإنجليزى الوقور طالبًا العون .. كان هذا أقوى منه ..

أخيرًا كان الطريق خاليًا فقال (درنشر) وهو يخرج منديلاً من تابلوه السيارة :

ـ « لا تؤاخذنى .. لكن المرحلة التالية ستظل سرًا .. يجب أن أعصب عينيك »

صاح (زكى) بعصبية :

ـ « كله إلا هذا ! »

قال اليهودى فى إصرار :

ـ « إما هذا أو نعود .. إننى أجازف بعنقى ولا أنوى أن أتخلى عنه على سبيل المجاملة .. »

قال بصدق :

ـ « لكنى لا أعرف الاتجاهات هنا .. ثق إن تعصيب عينى لن يحدث فارقًا .. لن أستطيع العودة حتى لو أردت هذا .. »

قال الرجل فى خبث :

ـ « ربما أنعش بعضهم ذاكرتك .. سوف تتذكر نفقًا هنا وعلامة طرق هناك .. يجب أن أفعل »

ترك الرجل يعصب عينيه .. وشعر بأنه أحمق .. كيف تثق بأحد لدرجة أن يقتادك إلى مكان لم تزره من قبل ، وتسمح له بأن يعصب عينيك ؟إنه الآن معدوم الحيلة فعلاً فلم يبق إلا أن تخترق الرصاصة جمجمته . وندم على أنه لم يترك اسم (درنشر) عند موظف استقبال الفندق ..

السيارة تواصل رحلتها .. لابد أن الطريق كله مهجور وإلا لاستوقفت الشرطة هذه السيارة التى يركبها رجل معصوب العينين ..

ـ « هنا .. لكن لا تنزع العصابة »

قالها (درنشر) وهو يوقف السيارة .. ثم فتح الباب وساعد (زكى) على الترجل .. وجره من يده كطفل عبر

صخور وعرة نوعًا حتى أنه كاد يتعثر مرارًا .. لابد أنه مشى نحو خمس دقائق ، ثم شعر به يدفع رأسه لأسفل .. يبدو أن هناك درجات سلم .. سلم صعب ذى زاوية حرجة .. ومرت لحظات قبل أن ينزع اليهودى عصابته ..

توقع (زكى) أن يعمى نور الشمس عينيه ، لكنه فوجئ بأنه فى مكان مظلم تمامًا لا تنيره إلا بعض المشاعل .. وعرف مصدر اللهب عندما رأى عود الثقاب فى يد الرجل ..

اللهب الذى يلقى ظلالاً شيطانية على ملامح الرجل ، وهو تأثير معروف .. لقد استطال حاجباه وصار أنفه أقطس .. لو كان طفلاً لصرخ وفر من هنا ، لكنه أكثر نضجًا من هذا ..

إنه الكهف !

رفع عينيه لأعلى .. وفى الضوء الخافت المتراقص استطاع أن يرى أن الرجل صادق .. إن الجدار الذى أمامه كله يحمل ذلك الرمز الاستعمارى الرهيب .. صليب (سواستيكا swastika) ..

الصليب النازى المعقوف ..

-٣-

فى أيامه الأخيرة عرف ((يوسف) .. أبو الحسن) أن نهايته قريبة ..

هذا ما تخبرنا به تلك المذكرات التى كتبها وأعطاها صديقًا له طالبًا ألا يفتحها إلا فى حالة اختفائه .. لقد عرف الصديق بخبر الوفاة لكنه ظل يحاول ألا يتورط فى هذه القصة ، وفى النهاية قام بفتح المظروف فتسليم الأوراق إلى مديرية الأمن فى الإسكندرية لتقع فى يد (عادل) ، وبالتالى تنتهى نسخة منها عندى أنا ..

على أننى وجدت تلك المذكرات فى وقت متأخر جدًا بحيث لم تساعدنى قط على فهم ما يحدث .. ولو وجدتها فى يدى منذ البداية لتجنبت الكثير من العناء والضحايا .. إلا أننى سأسمح لنفسى بحجب بعض الحقائق عن القارئ وإلا كان على أن أنهى القصة هنا والآن ، لأن المذكرات تفسر كل شىء .. هذا سلوك عادل فيما أرى لأنه يضع القارئ فى ذات حيرة موقفى فى تلك الفترة ، وقراءة أية رواية أو سماع أية قصة فى العالم تتضمن موافقة غير مكتوبة من القارئ / المستمع على أن يقبل احتكار الراوى لضخ

الحقائق .. بالطبع يعرف الراوى ما سيحدث لـ (آنا كارنينا) ومن قتل الأب (كارامازوف) وما سر المستند الذى سرقه (أرسين لوبين) ، لكنه سيقدم هذه المعلومات فى وقتها .. إنها الحقيقة ..لكنها ليست كل الحقيقة ..

* * *

كان ((يوسف) .. أبو الحسن) مدرسًا للتاريخ فى كلية الآداب ، وهو شاب مهذب شديد الذكاء ..كان ذكاؤه أكثر من اللازم فى الواقع .. متزوج وله طفلة رقيقة تدعى (ريهام) .. هذه مأساة أكثر من هلكوا فى هذه القصة ، لأنهم جميعًا متزوجون وآباء باستثناء ذلك الفتى (فايز) ..

فى الفترة الأخيرة كان ((يوسف) ..) منهمكًا فى دراسة تستغرق الكثير من الوقت والجهد .. وكان قد عاد من (بريطانيا) منذ عام واحد .. يبدو أنه وضع أولى خطواته على الطريق هناك ، وإن كان أحد لم يعرف ما يفكر فيه .. كان من تلك الشخصيات الكتوم التى يمكن أن تدبر جريمة قتل أو تخطط للحرب العالمية الثالثة دون أن يختلج لها جفن ..

على أنه بدأ يحقق تقدمًا واضحًا فى بحوثه ، وبدأ يدرك

أنه وجد وريدًا ثريًا .. هذه هى اللحظة التى تبدأ فيها الدجاجة الصياح لأن البيضة تؤلمها ..

ولهذه الأسباب عرض ما توصل إليه على أستاذه الدكتور (مختار) .. لماذا اختاره بالذات ؟ لا يعرف .. فجأة شعر بأنه يثق بهذا الرجل .. على كل حال لو فتشت بعناية لما وجدت شخصًا أصلح لهذه المهمة منه ..

كان د. (مختار أبو مندور) راهب علم من الذين تعج بهم هذه القصة .. لكنه يختلف عن رهبان العلم الحقيقيين فى أنه ثرى متزوج .. كان يملك ثروة لا بأس بها وفيلا فاخرة وسيارة تدير الأعناق .. لا أحد يعرف من أين جاءته هذه الثروة وهو لا يملك إلا راتبه ، لكن أكثر الناس كانوا يعتقدون أن ملامحه تنم عن أصل أرستقراطى لا بأس به .. ربما هو الميراث .. بل لابد أنه الميراث لأن أسرته ثرية ..

وكان لطيف المعشر حاضر الدعابة من الطراز الذى تعرض عليه مشكلتك فتشعر أنها صارت مشكلته .. وقد قابله (يوسف) .. فى ذلك النادى الراقى الذى يتناول غداءه فيه ، فأصر أولاً على أن يطلب غداء لـ (يوسف) .. سر هذا كثيرًا وإن أخفى سروره وراء الكبرياء ، وراح يجاهد

كى يستعمل الشوكة والسكين بشكل لائق أمام هذا الرجل الذى لا يكف عن مراقبة طريقة أكله خلسة ..

كانت النقطة الأساسية هى أن الرجلين لم يشتركا فى أى عمل علمى من قبل .. وبالتالى لا توجد أرضية مشتركة بينهما ، لكن (يوسف) كان قد سمع عن عقل (مختار) الراجح وقدراته العقلية النقدية .. إنه قادر على تفنيد أى هراء فى ثوان ..

هكذا طرح مشكلته وهو يجاهد المكرونة التى تأبى الالتفاف حول الشوكة ..

قال د. (مختار) وهو يسترخى فى مقعده :

- «ما عرفته مهم وطريف يا (يوسف) .. ، لكنك تبدأ على أرضية مهتزة .. شخصية غير محترمة بدأت هذا الخيط .. فما الذى تتوقع أن تصل إليه ؟»

قال (يوسف) :

- «إن المخطوطات معى ..»

هز الرجل رأسه ضاحكًا وجرع جرعة من كأس العصير وقال :

- «مخطوطات ؟ إن العالم يعج بها .. هناك مخطوطات فى كل مكان .. حتى الشيخ (عطوة) نصاب قريتك الذى يزعم قدرته على فك العمل يملك مخطوطات .. لو أن رجلاً وجدها بعد مائتى عام لملأ المنشورات العلمية صخبًا عن اكتشافه المهول ..»

ثم أشار إلى رأسه وأردف :

- «يجب أن يمر كل شىء على هذه المصفاة .. فما يبقى فيها يمكن البدء منه .. يجب أن تتمتع بعقلية جدلية وأن تناقش وتطرح الأسئلة .. يجب أن تفترض أنك مخدوع وتحاول إثبات العكس ..هذا هو (الفرض الباطل Null Hypothesis) الذى قاد العالم إلى التقدم ..»

هنا وصلت المكان امرأة على قدر من الجمال .. لها شعر أسود قصير وتخفى عينيها خلف نظارة سوداء . رفع (يوسف) .. حاجبين متسائلين فقال (مختار) وهو يجذب لها مقعدًا لتجلس :

- «المدام .. (علياء)»

هزت رأسها محيية ، ولم تقل أى شىء .. فراح (يوسف) .. يختلس لهما النظرات من حين لآخر .. يبدو

مظهرهما معًا كأنما هما لقطة من أحد الأفلام العربية .. النادى .. البازين .. المدام .. طبقة أخرى تمامًا تختلف عن الطبقات التى اعتادها فى الجامعة .. وقال لنفسه : إن وراءهما سرًا .. والأهم أنهما لا يبدوان سعيدين ..

جلست المرأة تدق بأناملها بعصبية على المنضدة ، ثم جاء النادل فراح (مختار) يثرثر معه ويتفحص القائمة .. هنا رفع (يوسف) .. عينيه نحوها فأدرك لرعبه أنها تنظر له من وراء النظارة ..

نظر إلى يدها فوجد أنها تمسك قلمًا وتخط به على قطعة من الورق الرقمين التاليين :

06

وراحت تعيد حفر الخط على الرقمين مرارًا وتكرارًا .. وفى إلحاح .. ثم مزقت الورقة وألقت بها فى منفضة التبغ بشىء من العصبية ..

أنهى (يوسف) .. الغداء فنهض شاكرًا .. قال له (مختار) وهو يلوح بيده :

ـ « يمكنك أن تمر على مكتبى لنفحص تلك الأوراق معًا .. أنا موجود غدًا . »

ـ « إن شاء الله »

* * *

بعد ما انتهى الدرس (السكشن) فرغ من الإجابة عن أسئلة الطلبة ، وقرر أن يتجه إلى مكتب الدكتور (مختار) .. إن الدكتور (مختار) من أقطاب القسم ؛ لهذا مكتبه على قدر من الفخامة ، وله حمام نظيف ملحق به ..

دخل الغرفة فلم يجد الدكتور ، لكنه سمع صوت الماء ينساب فى الحمام .. جلس على مقعد جلدى وراح يتأمل الشهادات المعلقة على الجدران ، وصور د. (مختار) مع أشخاص مهمين جدًا .. إنه لا يعرف شكل (هيرودوت Herodotus) أبى التاريخ لكنه لن يندهش لو كانت له صورة يصافح د. (مختار) ..

نظر إلى الحمام الذى كان بابه مواربًا .. استطاع أن يرى جزءًا من كتف الدكتور (مختار) أمام مرآة الحمام .. رجل يشذب شاربه فلا يوجد شىء غريب .. كانت الرؤية صعبة غير أكيدة ، لكن خيل إليه أنه يرى مشهدًا غير ممكن

فى المرآة .. الدكتور (مختار) يخرج لسانًا طويلاً كلسان السحلية يلعق به كرتى عينيه ! ثم يمد يده ليجمش أنفه والأنسجة المحيطة به ليمطها ثم يضغطها كأنها عجين يعيد تشكيله !

عند هذا الحد كانت ساقا (يوسف) .. أسرع من تفكيره ومن خوفه .. حتى (الأدرينالين) لم يصل لأى جزء من جسده بعد ، لكن ساقيه تصرفتا على مسئوليتهما .. وسرعان ما كان يجد السير فى الممر ..

أخيرًا توقف جوار الكافتيريا فدخل يطلب من العامل كوب ماء ..

ومع الجرعات الباردة راح يستعيد كل هذا الذى رآه .. مستحيل .. هى هلاوس بصرية .. لا أكثر .. لكن منذ متى تأتيه هذه الهلاوس البصرية ؟ كان دومًا لا يفهم كيف يخرف إنسان أو يهذى أو يفقد الوعى ..

لا جدال فى أنه رأى ما رآه ..

المشهد الكابوسى يتخذ موضعه على رفوف كوابيسه ولسوف يطارده إلى الأبد ، أما الآن فهو يمر بحالة تشبه

حالة الدجاجة المذبوحة التى تمشى وتلتقط الحب غير مدركة لحقيقة أنها تموت ..

وفجأة توقف ..

أخرج قلمه وكانت هناك جريدة صغيرة على الرف .. اقتطع من هامشها قصاصة وكتب عليها :

06

الزوجة كتبت هذا وظلت تعيد كتابته مرارًا .. لكنه كان يراها من ناحيته هو .. كان يرى ما تكتبه مقلوبًا .. فلو قلب القصاصة لوجد أن المكتوب هو :

٩٠

وهذا لا يعنى شيئًا .. لكن لماذا تفترض أنها كانت تكتب رقمًا ؟ إن فى الإنجليزية أحرفًا تتشابه مع الأرقام ، ولسوف يعرف هذا أى برنامج OCR (قارئ بصرى للحروف) بعد أعوام .. خاصة مشكلة B/8 ومشكلة g/9 ومشكلة S/٥ ومشكلة O/0 (*) .

(*) يستعمل خبراء الكمبيوتر الغربيون تعبير (خطأ B8) كناية عن غباء أجهزة المسح الضوئى ..

إذن ما كانت الزوجة تكتبه بهذا الإلحاح هو :

go

كانت تنصحه بالرحيل .. وكانت تنصحه بهذا بينما زوجها مشغول مع النادل ..

ولكن لماذا ؟ ما الذى كانت تعرفه ؟ وبعبارة أدق : ما الذى لا يجب أن يعرفه زوجها ؟

والسؤال الأهم هو : هل رآه ؟ مستحيل ألا يكون قد رأى انعكاسه فى المرآة ..

هذه لم تكن غفلة .. لقد كان يرسل له رسالة واضحة .. نعم أنا كما حسبتنى وأكثر ..

كان ((يوسف)) ..) يعرف الآن أبعاد المشكلة أكثر من أى واحد آخر ..

إنه هالك لا محالة ..

-٤-

عبثًا حاولت أن أنسى القصة ..

عبثًا حاولت لكنها ظلت تكرر نفسها بإلحاح على عقلى الباطن .. لا أعرف ما الغريب فى هذا .. إنها قصة بشعة لكن قل لى أى شىء بشع لم أره فى حياتى ؟ ليس الأمر خارقًا للعادة .. وليس ذا مكانة خاصة فى متحف ذكرياتى .. لهذا استبد بى العجب حينما نمت فى شقتى ، فرأيت ذلك الجدول الذى رسمته على خزانة (عادل) واضحًا جليًا أمام عينى .

لا توجد علاقة واضحة .. حقًا لا توجد علاقة واضحة .. الاسم المكتوب بالدم ليس دائمًا اسم الضحية التالية ..

(عباس) ..

(زكى) ..

(يوسف) ..

(فتحى) ..

ثم القتلى :

(مصطفى) ..

(يوسف) ..

(زكى) ..

(فايز) ..

(عباس) ، (زكى) ، (يوسف) ، (فتحى)

(مصطفى) ، (يوسف) ، (زكى) ، (فايز)

وفجأة هبط على الحل من ذات المكان الذى يهبط منه إلهام الشعراء .. من ذات المكان الذى جاءت منه لـ (إلياس هاو Howe) فكرة أن يثقب طرف إبرة آلة الخياطة .. يقولون إنه نام وفكرة تلقيم الخيط تؤرقه؛ ثم رأى فيما يرى النائم أن مجموعة من أكلة لحوم البشر تحيط به ، وكانت رءوس رماحهم مثقوبة .. هكذا نهض من النوم صارخًا .. وجدتها !

أنا كذلك وجدتها !

الحروف الأولى من الأسماء التى تركتها الدماء على الأرض .. وبالترتيب هى :

ع ز ى ف

(عزيف) !

* * *

الآن صار النوم مستحيلاً .. أولاً : بسبب الحماس .. ثانيًا : بسبب الرعب .. الحق أعترف أن انقباضًا شديدًا غمر صدرى عندما سمعت هذا الاسم المشئوم ..

أضأت الأنوار كلها .. ثم دسست فى جهاز الكاسيت شريطًا عليه تسجيل قرآنى .. أريد أن أسمع كلمات الله تتردد فى هذا البيت الكئيب .. رباه ! لكم أنا وحيد تعس !

لو كانت هناك زوجة ثرثارة لا تكف عن لومى وتفتيش جيوبى لما شعرت بهذا الذعر كله . إن الملل والانزعاج أفضل من الرعب على الأقل ..

فى الصالة جلست أفكر فى معنى هذا كله ..

قد أكون واهمًا .. قد أكون أحمق وليتنى كذلك فعلاً لكن هذا الترتيب متعمد .. أقسم أنه كذلك .. (العزيف) .. الأمر يتعلق به وقد شممت هذه الرائحة المشئومة عندما تكلم (فايز) عن الكتاب المشئوم الآخر (إينوخ) .. وعن (ناتان غزة) ..

العزيف .. لغويًا هو صوت الحشرات فى الصحراء ليلاً والذى كان العرب يحسبونه صوت الجن ..

شاعر عربى قيل إنه مجنون .. وقيل إن اسمه (عبد الله الحظرد) .. على الأقل هذا هو الاسم الذى قاله (لافكرافت Lovecraft) مرارًا فى قصصه .. إلا أن الغربيين الذين يعرفون العربية لاحظوا ما لاحظناه نحن .. ليس هذا الاسم ذا رنين عربى على الإطلاق .. لهذا وضعوا احتمال أن يكون الاسم الأصلى (عبد الله ظهر الدين) أو (عبد العُزّى الراهب بن عاد) .. الاسم الأخير غير منطقى هو الآخر لأنه لا يمكن أن يوجد بعد الإسلام من يدعى (عبد العُزّى) ..

إنه العام ٧٠٠ م .. الشاعر (الحظرد) يولد فى (صنعاء) .. وقيل عنه الكثير على لسان المؤرخين وعلى لسان (لافكرافت) .. لهذا يمكن أن نقول باطمئنان إنه عاصر عصر الأمويين ، وسافر كثيرًا إلى خرائب (بابل) وأجاد عدة لغات .. وزعم أنه يعرف موقع بقايا (إرم ذات العماد) التى ذكرها القرآن الكريم(*) .

هناك نبع مهم لأفكار (الحظرد) هو أساطير مدينة (هارانيان) .. وهى من بلدان الشمال .. أى أن أهلها أقرب إلى الفايكنج والكلت .. استقر عدد من هؤلاء فى بغداد

(*) سورة الفجر – الآية السابعة .

مكونين مجتمعًا منغلقًا لم يدخل الإسلام ، وهم من أطلق عليهم اسم (الصابئة) .. إلا أنه استطاع أن يندمج بهم وقد أعطوه ثقتهم وحكوا له الكثير .. ويبدو أن حكاياتهم قد جعلته يفكر كثيرًا .. يفكر أكثر من اللازم ..

لهذا سوف نرى فى أعماله طابعًا واضحًا يدل على ثقافة (شمالية) واسعة ..

ثم استقر فى دمشق ليكتب ذلك الكتاب المخيف (العزيف) .. يقولون إن هذا هو ما قام به (نوستراداموس) بالعكس .. (نوستراداموس) درس السحر ليعرف أسرار الغد ، بينما (الحظرد) درس السحر ليعرف أسرار الماضى ..

فى العام ٧٣٨ م (١٢٠ هـ) يرتحل (الحظرد) إلى الربع الخالى فى الجزيرة العربية ليحيا وحيدًا .. هذا مكان يناسب أساطير العرب جدًا .. الفلاة والقفر والجن .. بالنسبة لنا معشر العرب يجب أن نتذكر أن (عاد) هم قوم سيدنا (هود) عليه السلام ، وكانوا يعيشون بالأحقاف بين (حضرموت) والشحر وعُمان قرب الربع الخالى بشبه الجزيرة العربية .. ومنهم جاء نسل ملوك (جرهم) الذين قيل إنهم من العماليق ..

ثم يحكى الشهود أنهم رأوا (الحظرد) من بعيد وهو يتصارع مع كائن مخيف غير أرضى .. وأن نهايته كانت شنيعة ..

زعم (لافكرافت) إن (الحظرد) كان يعبد آلهة وثنية تدعى (كتولو Cthulu) و(يوج سوثوث Yog Sothoth) .. طبعًا لا أبتلع هذا الجزء على الإطلاق ، لأن هذه الأسماء (لافكرافتية) جدًا ولا يسيغها العقل العربى أو يستطيع اختراعها ..

عندما يبتكر العقل العربى أسماء فهى تأتى من ثقافته وخلفياته ، ونفس الشىء ينطبق على العقل الغربى .. حتى على مستوى النطق نفسه .. أشعر برغم أن هذا غير صحيح ـ كأن هناك فمًا عربيًا تشريحه يناسب النطق بأسماء مثل (امرؤ القيس) و(بنو قينقاع) ، بينما تشريح الفم الغربى خلق لينطق (Exquisite) و(Deleterious) .. طبعًا قد يجرب الغربى نطق أسماء عربية والعكس .. لكن النتيجة فى الحالين لا تخدع أحدًا .. ولقد سمعت كوريًا ينطق اسم (هتشكوك) فلم تتبين أذنى فى نطقه أى حرف شين أو كاف .. السبب أن هذا فم كورى يحركه عقل كورى ..

أين ذهب نص الكتاب الرهيب ؟ لا أعرف .. لا أحد يعرف على الأرجح .. لقد تبخر (العزيف) تمامًا .. وقد حاول الحاكم (إدريس شاه) أن يجده فى كل المكتبات العربية والهندية فلم يوفق .. إلا أننا نعرف أن رجلاً يدعى (تيودور فيليتاس) ترجمه إلى اليونانية فى كتاب من تسعمائة صفحة .. وهو الكتاب الذى سيأمر البابا جريجورى التاسع عام ١٢٣٢ بمنع تداوله وإحراق نسخه ..

لما انتهى (فيليتاس) من الترجمة ، بحث عن اسم يناسب العقل واللسان الغربيين كما قلنا من قبل فاختار ذلك الاسم الذى صار مألوفًا لنا ..

(نيكرونوميكون Necronomicon) ..

ومعناه (كتاب أسماء الموتى) ..

- ٥ -

برغم أن هذا لا يمثل له ذكرى خاصة ، وجد د. (زكى) رهبة فى النظر إلى شعار النازية هذا ..

بالنسبة للعرب لا يمثل الصليب المعقوف ذكرى مريرة ما ، وربما كان يمثل للبعض حلم الخلاص من الاستعمار الإنجليزى فى فترة ما .. هو نفسه كان فى العقد الثالث من عمره فى ذلك الزمن ، وكان ضمن الشباب الذين خرجوا يهتفون فى الشوارع : «تقدم يا (روميل)»

لكن حينما تجد هذا العنوان الاستعمارى القوى على جدران كهف .. فلابد أن تشعر برهبة ..

قال (درنشر) وهو يرفع المشعل عاليًا :

- «لا يعرف هذا الموضع إلا ثلاثة أو أربعة فى هذا البلد .. »

ثم تقدم إلى الأمام فاضطر (زكى) إلى أن يتبعه وهو يتساءل أى مخبول هو ..

كان الشعار على جدار عتيق ، وفى قلب الجدار باب .. فما إن فتح اليهودى الباب حتى هبت روائح العطن ..

واستطاع (زكى) أن يدرك أن هذا ممر طويل ضيق .. له سقف منخفض .. مكان كابوسى فعلاً فكيف بالظلام ؟

قال (درنشر) وعلى شفتيه ابتسامة وقحة لا تعرف سببها :

- «كانوا يعذبون بعض اليهود فى هذه الأقبية .. »

كان (زكى) يتوقع هذا على كل حال .. لن يكف الرجل عن الكلام عن المحرقة إلى الأبد .. يذكر أحد الدبلوماسيين الأمريكيين أنه عرض على (بيجين) رئيس الوزراء الإسرائيلى لعب الشطرنج ، فقال هذا فى مرارة : لم ألعبها منذ هلك أبى فى معتقل (أوشفيتز) .. كان يحبها .. ثم اعتقله النازيون و ...

« .. وراح يحكى فاصلاً مرعبًا عما فعله النازيون بأبيه .. هنا مرت زوجة (بيجين) برقعة الشطرنج فرأت زوجها يجلس مع الدبلوماسى الأمريكى فهتفت فى مرح : «شطرنج كالعادة ! إن زوجى لا يكف عن لعب هذه اللعبة ليلاً نهارًا !! »

هكذا راح (درنشر) يحكى لـ (زكى) حكايات مرعبة عما كان يتم فى هذه القبو منذ ثلاثين عامًا .. دعك من صوته

الهامس الشبيه بالفحيح والضوء الخافت ورائحة العطن .. الحق إنها تجربة مريرة فعلاً ..

سأله (زكى) ليقطع سياق خواطره :

ـ « هل الأوراق كاملة ؟ »

قال (درنشر) :

ـ « لا .. أعتقد أنك تعرف هذا من البروفسور (هاتون) .. هذا هو الجزء الذى تمكن النازيون من سرقته من المتحف البريطانى .. إن (كراولى) كان ثرثارًا .. أنت تعرف أنه كان عضوًا فى الجمعيات الماسونية ..وقد انزلق لسانه أمام أحد الأعضاء الألمان .. هكذا انتقل الخبر إلى الوغد الأكبر .. (أدولف هتلر) شخصيًا .. وقد كان شديد الإيمان بالخرافات شديد التطير .. بعد قليل تمت سرقة بارعة جدًا للمتحف البريطانى .. سرقة محكمة تنم عن تخطيط لا يقوم به إلا جهاز مخابرات .. ما الذى سرق من المتحف ؟ سرق كتالوج المتحف وسرقت ترجمة (دى) لهذا الكتاب .. أعنى بعض فصولها لأنها لم تكن كاملة .. من فعل هذا ؟ »

ثم نظر الرجل إلى القبو أمامه وقال :

ـ « من وقتها انتشرت إشاعات تقول إن الكتاب مخبأ فى

مقر قيادة نازى فى مكان ما من (أوشر هورن) فى (سالزبورج) .. لكن أين ؟ أين ؟ »

وضحك كثيرًا ثم التمعت عيناه وقال :

ـ « محسوبك يعرف .. إن لليهود أبحاثهم .. وقد تمكنا من العثور على هذا المقر المختبئ فى الكهف .. لقد مات سره مع النازيين وصار نسيا منسيًا .. كل من له علاقة بهذا المكان قتل أو انتحر أو فر إلى أمريكا الجنوبية . لكننا معشر اليهود نعرف كيف نستفيد مما نعرفه .. والبروفسور (هاتون) يعرف هذا جيدًا .. لذا اتصل بى ونجح فى إقناعى بالتخلى عن هذا الكتاب .. »

سأله (زكى) وهو يغالب تقززه :

ـ « ولماذا لم تأخذ الكتاب لنفسك ؟ »

ـ « من يله بالنار يحترق بها .. هذه لعبة خطرة جدًا تحتاج إلى أشخاص من وزن (دى) و(كراولى) للتعامل مع هذه القوة الشيطانية المرعبة .. لكنى رجل بسيط لا يرغب إلا فى الثراء ، ولربما كان الخلاص من هذا السر أفضل لسلامتى الشخصية .. أعتقد أن البروفسور (هاتون) يدفع جيدًا .. »

مد (زكى) يده إلى جيبه وتحسس الشيك .. لن يعطيه الرجل إلا بعد التسلُّم .. طبعًا من الوارد أن يحتفظ الرجل بالشيك والكتاب ولن يلومه أحد .. لو قتل (زكى) الآن فلا مشكلة .. لن يفتضح أمره أبدًا ..

لكن (زكى) دعا الله ألا تكون الأمور بهذه الخطورة . بالنسبة له لا يزيد الكتاب على مخطوطة أخرى من عشرات المخطوطات .. ولو كان يعرف هذا التاريخ الأسود لتردد مرارًا .. مخابرات نازية وكهف و ..و .. لعبة مرعبة حقًا ..

الآن كان (درنشر) يتقدم وسط الممر .. ثم فتح باب إحدى الغرف الجانبية ودخل ..

مشى (زكى) وراءه فى ضوء المشعل ..وأدرك أنها كانت غرفة مكتب يومًا ما .. شعر بأنه يتعثر فتوازن بسرعة .. وفى اللحظة التالية كان يحدق فى جمجمة تضحك ضحكة الموت الماجنةِ فى وجهه .. أطلق صرخة وتراجع ..

- « هذا (فريتز) البدين ! »

قالها (درنشر) ضاحكًا وهو يخفض المشعل لينير تلك الجثة .. جثة عليها أسمال يبدو أنها كانت ثيابًا عسكرية

رمادية يومًا ما .. جوار يد الهيكل العظمى مسدس .. والثقب فى الجمجمة يحكى قصة بليغة جدًا ..

- « (فريتز) البدين كان مؤمنًا بالفوهرر لذا فضل البقاء هنا عندما سمع خبر موته .. فجر رأسه بمسدسه كما فعل الفوهرر نفسه ..إنه ليس الوحيد فلا تخف »

ثم رفع المشعل وواصل التقدم .. بالفعل أدرك (زكى) أن هناك أكثر من هيكل عظمى على الأرض ..

كانت هناك صورة قوطية الطابع على الجدار تصور معركة ما من معارك القرون الوسطى ..

اتجه نحوها (درنشر) ورفع المشعل .. اقترب من صورة فارس يضع قدمه على صخرة وينفخ بوقًا .. وضع كفه على البوق .. هنا دوى صوت صرير .. وببطء انفتحت كوة فى الجدار ..

سأله (زكى) السؤال الوحيد المنطقى :

« لو تصورنا أنك وجدت هذا المخبأ .. فكيف عرفت هذا كله ؟ »

- « هىء هىء .. نحن اليهود لنا وسائلنا .. هىء هىء .. »

- « وهذه الآلية تعمل بذات الدقة منذ ثلاثين عامًا ؟ »

- « أنت تتعامل مع ألمان .. دعك من أننى آتى هنا كل شهر لأتأكد من أن كنزى بخير .. »

ثم مد يده حتى الكوع داخل الكوة ، وحينما خرجت كان فى يده مجلد عتيق الشكل .. ناوله لـ (زكى) ثم أغلق الكوة فى حذر ..

أمسك (زكى) الأوراق وراح يفرها .. كانت مكتوبة بالإنجليزية لكنها مليئة بالرموز ..

رفع عينه فوجد (درنشر) ينظر له بخبث ، ثم يخرج من جيبه كيسًا بلاستيكيًا ويناوله إياه :

- « أنصحك أن تضعه فى هذا الكيس .. »

- « لن أمزقه .. إننى أتعامل معه بالحذر .. »

- « هذا لمصلحتك .. لن تسعد حينما أخبرك أن هذه الأوراق مجلدة بجلد الموتى ! جلد يهودى مدبوغ ! »

ارتجف (زكى) ولاشعوريًا أسقط الكتاب فى الكيس وهو يحلم بأن يبتر كفيه .. منذ اللحظة الأولى شعر بأن ملمس

المجلد غير مريح .. لكن موضوع جلد اليهود هذا على الأرجح نوع من المبالغات اليهودية المعتادة ..

قال (درنشر) ضاحكًا :

- « كان هذا طقسًا أرادوا به أن يمنحوا الكتاب قوة .. كلما كان الأمر شريرًا أكثر .. أنت تعرف هذه الأمور .. والآن الشيك لو سمحت .. »

أخرج (زكى) الشيك من جيبه وناوله للرجل ، ثم أمسك الكيس فى حذر مغالبًا شعور التقزز ..

حينما رفع عينه كان يحدق فى نصل خنجر عملاق يلتصق بعنقه ..

نظر فى رعب للرجل .. فقال له هذا الأخير :

- « هل يوجد سبب واحد لجعلك تخرج من هنا ؟ الشيك معى والكتاب مهم جدًا بل بالغ الأهمية .. كانت حماقة منك أن تأتى غير مسلح .. »

ثم قال بخبث وهو يشير إلى الأرضية :

- « هل حقًا تعتقد أن كل هذه الهياكل العظمية هياكل ضباط نازيين ؟ ألم تلحظ أن بعضهم يلبس ثيابًا مدنية .. بل حديثة كذلك ؟! »

- ٦ -

وأنا ما زلت ساهرًا أفكر ..

إن نور الفجر قد بدأ يتسرب عبر الستائر وهذا أفضل .. ما زلت أشعر بأننى لن أموت إلا ليلاً .. سواء كانت ميتة طبيعية أو غير طبيعية ..

ما زلت أحاول أن أربط قصة هؤلاء الذين ماتوا بقصة (العزيف) ..

لقد أخرج الأسبان العرب من الأندلس ، وكان أن بقيت مجموعة من السكان ذوى الأصل العربى الذين أطلق عليهم اسم (المور Moor) .. كان هؤلاء الآن موضع اضطهاد وتعذيب محاكم التفتيش .. ويبدو أن التعذيب جعل بعضهم يتكلم .. وما قاله كان مثيرًا أثار شغف الراهب الدومينيكانى (أولاس فيرمياس) ، من ثم حصل بشكل ما على كتاب (نيكرونوميكون) وترجمه إلى اللاتينية .. فى هذا الجو بالذات جو محاكم التفتيش كان عمله انتحارًا .. سرعان ما تسرب الخبر وحوكم الرجل واتهم بالهرطقة وأحرق .. يقال إن نسخة من هذا الكتاب محفوظة فى مكتبة الفاتيكان .. وما أكثر الأسرار الغامضة المتوارية فى هذه المكتبة ..

بعد هذا يظهر اسم (يعقوب أليتزر) وهو (نكرومانسر) محترف هكذا عينى عينك قيل إن الكتاب معه ..

الآن تنتقل القصة إلى جو عبرى صرف ..

لقد ترجم الكتاب إلى العبرية عام ١٦٦٤ ، وصار اسمه (سيفر هاشارى حاداث) أى (كتاب بوابة المعرفة) .. وهنا يدخل المسرح (ناتان غزة Nathan of Gazza) .. ساحر يهودى ولد فى القدس ودرس التلمود والكابالاه .. ثم وقع الكتاب الرهيب فى يده فوجد أنه يحدثه عن أمور تهمه شخصيًا ..

بعد هذا يظهر اسم (دى) الساحر الشهير الذى ترجم الكتاب إلى الإنجليزية .. ثم نثب وثبة واسعة جدًا لنلتقى من يدعى (أليستر كراولى Aleister Crowley) .. وهو أشهر من نار على علم لمن يهتمون بهذه الأمور ..

* * *

هل هو نصاب ؟

هل هو خبير فى (ما وراء الطبيعة) ؟

هل هو كما يعتبره البعض فى الغرب التجسيد الحقيقى

للشيطان ؟ لاحظ إن اسمه الرسمى فى كتابات الغرب هو (الوحش) ..

بالنسبة لى أعتبره شخصًا مثيرًا للجدل ، لكنه ساحر و(من نفث فى عقدة فقد كفر) .. دعك من أنه شيطانى Satanic بلا تزويق؛ لهذا أكره سيرته ووجهه المخيف الذى يطالعك فى كل صوره .. لسعداء الحظ الذين لم يروا صورته أقول إنه نسخة مخيفة من (موسولينى) .. أما من لم يروا (موسولينى) فلهم أقدم اعتذارى .. !

(أليستر كراولى) .. !

رمز السحر المعاصر بالنسبة للعقل الغربى .. ولد فى إنجلترا عام ١٨٧٥ ، وارتحل إلى كل مكان فى الأرض .. حرفيًا ارتاد كل مكان من أعمق الوديان إلى أعلى الجبال .. تعلم اليوجا فى سيلان وتعلم سحر القبائل وتعلم من بدو الصحراء .. كتب مائة عنوان تقريبًا ، وله مجموعة أوراق (تاروت Tarot) مهمة متداولة حتى اليوم .. كما أن له مذهبًا شهيرًا اسمه (الثيليما Thelema) وكتابًا أشهر اسمه (كتاب القانون) يقال إن أكثره مسروق من (العزيف) .. ثم مات فى الأول من ديسمبر عام ١٩٤٧ وتم حرق جثته

مع تلاوة مقاطع من (كتاب القانون) كما أوصى بهذا ، وقد أثار هذا غضب المتدينين ..

ما يعنينى من حياة (كراولى) هو أنه قرأ ترجمة (دى) للكتاب .. هكذا قرر أن يتقمص بالكامل شخصية (الحظرد) ، وارتحل إلى شمال أفريقيا فقط ليجوب الصحراء وحده .. ممارسًا ذات الخبرة التى عاشها (الحظرد) ..

جاء عام ١٩١٨ ومعه كان موعده مع السحر الأنثوى ..

يدهشنى فى تاريخ حياة هذا الرجل أنه كان مولعًا بالنساء برغم إن هؤلاء القوم الراغبين فى السيطرة على الكون لا يبالون بالنساء على الأرجح .. يذكرنى الأمر بماسورة البندقية التى لا تنطلق منها الرصاصة إلا إذا كانت بلا ثقوب تبدد طاقة الانفجار ، لهذا يغلب على هؤلاء الأشخاص ذوى الكاريزما أن يكون اهتمامهم مركزًا خالصًا لشىء واحد فقط ، كأنهم أساتذة اليوجا أو فرسان النينجا القدامى أو الرهبان البوذيين ، إلا أن الأمر لا ينطبق على (كراولى) .. يبدو أنه كان قادرًا على الاهتمام بأشياء أخرى أيضًا .. ويبدو أنه كان يعتبر هذا جزءًا من (الشيطنة) المطلوبة للوصول إلى ما يريده ..

كانت هناك امرأة حسناء تدعى (سونيا جرين) .. وصفها فى كتاباته بأنها (يهودية حسناء ممتلئة بالحيوية) .. كانت مطلقة تعمل بتصميم الثياب والقبعات .. وقد عرفها (كراولى) وهام بها حبًا لفترة قبل أن تتركه أو يتركها ..

المهم أنها بعد ثلاثة أعوام وجدت لنفسها عريسًا كئيبًا وفنانًا غريب الأطوار يدعى (لافكرافت) ..إنه من أهم كتاب الرعب الأمريكيين .. بل أهمهم فى العالم كله فلا يمكن مقارنته إلا بمواطنه (إدجار آلان بو) .. وفى العام ذاته ظهر اسم (الحظرد) لأول مرة فى كتابات (لافكرافت) ..

إذن كانت المرأة تسلى زوجها الأديب البائس قبل النوم بحواديت (أمنا الغولة) هذه .. ويمكننا أن نتبين بوضوح تام الخيط الذى يصل بين (كراولى) و(لافكرافت) ..

فيما بعد زعم (لافكرافت) أنه كان يطلق على نفسه فى طفولته اسم (الحظرد) .. أعتقد الآن أننى أجد صعوبة فى تصديق هذه القصة ، وأصدق أكثر أن (لافكرافت) لم يسمع عن (الحظرد) إلا عام ١٩٢١ عندما قابل الأخت (سونيا) ..

* * *

نور النهار يدخل كاملاً بلا نقصان من النافذة ..

الآن أستطيع أن أنام .. سأتصل بهم فى المستشفى أخبرهم أننى أصبت بالفالج أو سقطت من الشرفة ، وأن عليهم ألا ينتظرونى اليوم .. هكذا سأنعم بنوم عميق حتى الظهر ..

يقودنى هذا إلى الكلام عن كتاب (إينوخ) الذى تكلم عنه الفتى (فايز) يرحمه الله ..

هذا الكتاب ظهر إلى العالم مترجمًا على يد ساحر يدعى (دى) .. هذا الرجل زعم أنه التقى بكيانات قديمة مخيفة عن طريق هذا الكتاب .. قال إنها كانت تستعمل شفرة غريبة ، لكنه وجد حل هذه الشفرة فى الـ (إينوخ) واستطاع أن يتصل بها ، وقد استعمل سحرة كثيرون ذات الشفرة اللغوية ووجدوها مريحة ..

كان الفتى (فايز) يبحث عن كتاب (إينوخ) .. معنى هذا أنه مهتم بما قاله (دى) .. مهتم بالكيانات القديمة .. ثم سألنى عن (ناتان غزة) .. معنى هذا أنه فى الطريق الذى يقود إلى كتاب (نيكرونوميكون) .. لا أحد يسأل عن (ناتان غزة) إلا إذا كان يعرف التاريخ الكامل لهذا الكتاب ..

لهذا أنذرت الفتى من عدم الدخول فى هذه المتاهات العبرانية ..

ما معنى هذا كله ؟

١ ـ هناك جرائم بشعة ..

٢ ـ هذه الجرائم تمس أشخاصًا لهم علاقة بدراسة التاريخ أو البحث فيه ..

٣ ـ دم هؤلاء الأشخاص يكتب رسالة تحذيرية .. إنها الحروف الأولى من عبارة (عزيف) ..

٤ ـ أحد هؤلاء الأشخاص كان يقينًا يبحث عن هذا الكتاب ..

ولكن من جديد ما معنى هذا كله ؟

حقًا لا أعرف .. لا أستطيع ربط الأحداث ببعضها .. لكن القصة كلها تحوم حول هذا الكتاب الرهيب .. لقد ظهر أو هو موشك على الظهور ..

لقد حان وقت النوم ..

ثمة مزية مهمة هنا هى أننى لا أحلم أبدًا عندما أنام فى النهار .. هذا يعد بنوم مريح باسم .. وإلا وجدت الأخ

(الحظرد) شخصيًا مع (كراولى) قادمين ليجلسا على صدرى إلى أن أصحو من النوم ..

حان وقت راحة العقل ..

ربما أخبر (عادل) هاتفيًا بهذا الذى عرفته ..

وربما لا ..

-٧-

إنه كمين مريع ..

و(درنشر) يتقدم بالخنجر نحو (زكى) .. المشعل فى يد والخنجر فى الأخرى ، وهو يضحك فى جنون .. ويأتى بحركات (تشريط) أو Slashing كما لا أجد وصفًا آخر .. ضربات هستيرية ترسم أقواسًا فى الهواء .. لابد أن تصيب واحدة منها بطن (زكى) ..

هكذا تراجع للوراء محاذرًا ..

إن اليهودى مخبول فعلاً .. إنه لا يكف عن الضحك كأنه يمزح .. كأنها دعابة لطيفة يغيظ بها صديقًا ..

إذن لم تكن كل الهياكل العظمية تخص النازيين .. بعضها كان يخص حمقى آخرين أرادوا شراء الكتاب .. لو هلك هو (زكى) الآن فلن يجده أحد ، ولن يستطيع البروفسور (هاتون) أن يثبت شيئًا .. فقط قبل أن يتبين اختفاؤه يتجه (درنشر) إلى المصرف ويصرف الشيك أو يكلف أحدهم بذلك.

هجمة أخرى مريعة ..

فى هذه المرة تراجع أكثر فسقط على الأرض ..

آلمه ظهره من جراء السقطة ، لكنه أدرك أنه تعثر فى (فريتز) البدين .. النازى الذى كان أكثر نازية من (هتلر) .. جوار يد (فريتز) المتحللة كان ذلك المسدس الذى بخع به نفسه يومًا ما منذ ثلاثين عامًا ..

مسدس عتيق ألمانى .. مسدس عتيق ألمـ ..

وقبضت يده على المسدس .. ترى هل يعمل ؟ هل ما زال صالحًا بعد هذه الأعوام ؟ هل هو محشو .. لابد أنه كذلك .. هذا مسدس ضابط ألمانى أثناء الحرب ..

لم يكن قد أطلق أى سلاح نارى من قبل .. إنه لم يلتحق بالجيش بسبب ضعف بصره ..لكن الضرورات تبيح المحظورات .. وهذا الوغد المجنون قادم نحوه وهو يطلق الضحكات ولا يكف عن طعن الهواء ، حتى أن الهواء راح ينزف بغزارة ..

صوب نحو صدر الرجل ..ضغط على الزناد .. بدا له أنه لن يتحرك أبدًا .. ثم لان فجأة ..

كان الصوت عاليًا إلى حد لا يصدق .. لم يتصور قط أنه

يحدث كل هذا الصخب .. لقد تساقط الغبار من سقف الحجرة وبدا أن الصدى لن يتوقف أبدًا .. إنها الطلقة الأولى التى تسمع هنا منذ نسف (فريتز) رأسه منذ ثلاثين عامًا .

لكن الرجل كان قادمًا وهو لا يكف عن طعن الهواء .. هكذا وجه المسدس من جديد ، وضغط على الزناد ثانية ..

فى هذه المرة حدث شىء ..

لقد طار الرجل فى الهواء ليسقط على ظهره على بعد مترين .. وهمدت حركته تمامًا .. المشعل الوهاج بجواره على الأرض ..

نهض (زكى) واتجه نحو الرجل الراقد .. لم يرد أن يجازف ، لذا أطلق طلقة أخرى فى الموضع ذاته ..

فكر فى أن يسترد الشيك لكنه لم يجسر على لمس الرجل .. كان ملوثًا بالموت وأية لمسة يمكن أن تنقل لك العدوى .. هذه من قوانين (التابو Taboo) الشهيرة ..

هكذا غادر الغرفة الرهيبة .. مشى فى الممر حتى خرج من الباب إياه .. هناك درجات تقود لأعلى .. ثم فتحة صغيرة فى السقف يمكنك أن تخرج منها لتجد أنك فى ممر آخر ..

تنظر لقدميك فلا ترى الفتحة التى خرجت منها لأنها مغطاة بذات نوع الصخور التى على الأرضية ..

الآن يرى ممرًا آخر قاده إلى خارج الكهف .. واستطاع أن يفهم سبب سرية المكان .. إنه موصد ببوابة حديدية عليها إنذار من البلدية لأن هذا الكهف خطر وممنوع دخوله .. طبعًا هم لا يعرفون أن هناك مقرًا كاملاً للنازيين تحت أقدامهم .. لم يحاول غلق البوابة التى ثبت عليها جنزير حديدى ثقيل ، لأنه خشى أن يضطر إلى العودة لسبب ما ..

لكنه لن يعود لأى سبب ..

هذه منطقة أقرب إلى سفح جبل تحيط به الأشجار الكثيفة ..السيارة العتيقة واقفة هناك ، ويبدو أنها قطعت طريقًا متعرجًا مرهقًا غير ممهد . قلبه يتواثب كطبل فى صدره .. المفاتيح ! ماذا عن المفاتيح ! لن يعود لتفتيش جيوب الجثة .. أبدًا .

نظر داخل السيارة فرأى المفاتيح معلقة .. حمدًا لله ! كان (درنشر) مطمئنًا تمامًا إلى أن المنطقة قفر ..

كان يلبس القفازين عند قدومه ، لذا أعاد لبسهما وأدار

المحرك .. كان عسير التشغيل .. طبعًا .. لابد من هذا .. السيارات لا تعمل أبدًا عندما يكون الغرض منها هو الهرب .. سوف تظل عنيدة إلى أن يأتى أحدهم ويدخل رأسه من النافذة .. شبح الرجل ؟ لا .. ليس بهذه السرعة ..

حاول عدة مرات .. جرب أكثر الحيل التى يعرفها . فى النهاية استجاب المحرك .. وتصاعد الهدير المحبب للنفس ..

وانطلق (زكى) بالسيارة .. تجربة طريفة هى .. أن تقود سيارة رجل قتلته فى منطقة لا تعرفها فى (سالزبورج) وفى جيبك كتاب شيطانى مجلد بجلد الموتى !

أى كابوس هذا !

يمشى بالسيارة فوق الآثار التى رآها من قبل .. فى النهاية يرى طريقًا ممهدًا ..

هكذا راح يمشى على غير هدى .. يقرأ أسماء على لافتات تتحدث عن قرى لا يعرف عنها أى شىء ..

فى النهاية رأى ما كان يبحث عنه .. الفلاح النمساوى العجوز ذا الشارب الكث الذى ينقل تبنًا إلى عربة صغيرة تقف إلى جوار الطريق .. هكذا سأل الرجل عن الطريق

فأرشده ..وقد ضل طريقه عدة مرات حتى أنه تعجب من عبقرية الرجل الذى استطاع المشى فى هذه المتاهة (الكريتانية) ..

قاد السيارة حتى اقترب من المدينة نوعًا ثم وجد مجموعة من الأشجار فقادها إلى هناك وتركها ..

ثم عاد راجلاً .. وكان معنى هذا أن يمشى ساعة ..

كان يعرف أن الشرطة ستجد السيارة .. لكنهم لن يجدوا الرجل .. لن يجدوا بصمات ..

عامة لا يوجد أى شىء يربطه بـ (درنشر) إلا أن يكون الرجل ثرثارًا أخبر زوجته أو أصدقاءه بوجهته قبل التحرك .. أو أن يكون موظفو الفندق قد تذكروا وجه الرجل جيدًا .. هذا صعب لأنهم مشغولون جدًا دعك من أن أحدًا لن يسألهم .. ..

الأهم هو أن مهمته العلمية قد انتهت .. سوف يكون فى مصر بعد يومين ..

وللمرة الأولى بدأ يشعر بالحنين لمصر .. لقريته .. لأصدقائه ..

لقد شفاه كتاب (نيكرونوميكون) من عقدة الخواجة للأبد .. وهذا يعنى أن للكتاب قدرات خارقة برغم كل شيء ..

★ ★ ★

ـ « لا أعرف السبب لكنك تغيرت .. »

قالتها (جابى) وهما يقفان على ضفة نهر (سالتساخ) متقاربى الرأسين .. لكنه لم يرتبك .. من الطبيعى أن يتغير وقد حانت ساعة الفراق .. إنه نوع من (انتحال العاطفة) كما يضع الممثلون القطرة ليجيدوا فى مشاهد البكاء ، أو كما يجلس المرء حزينًا مهمومًا فى سرادق العزاء لأن فريق الأهلى خسر الكأس فى مباراته الأخيرة ..

قال لها :

ـ « عندما يفارق المرء أجمل وأرق فتاة عرفها لا تتوقعى أن يرقص طربًا »

تعانقت أناملهما وأدرك أنها تحبه حقًا .. ما لم تكن تنتحل العاطفة بدورها ..

قال لها بصوت رخيم :

ـ « أنت فى وجدانى دائمًا .. لا أعرف إن كنت سأحصل على الطلاق أم لا لكنى سأحاول جاهدًا .. »

ـ « خذ وقتك .. من يدرى ؟ ربما أزور مصر هذا العام ! »

أراد أن يصرخ (كله إلا هذا) ثم ابتلع لسانه .. لو جاءت لكانت فضيحة ..

لكنه يحبها بالفعل .. وسوف يتزوجها فى أقرب فرصة .. لكنه لن يقيم معها فى مصر .. لا يريد أن يراها بلا خلفية من القصور القديمة والغابات وموسيقا (موتسارت) .. لا يتصور أن تكون خلفية صورتها هى (باب اللوق) أو (العتبة). سيقيم معها فىَ (النمســ ...) .. النمسا ! لقد صارت ملطخة للأبد بهذه الذكرى الرهيبة .. لن يقدر على الحياة هنا أبدًا .. والأسوأ أنه يشعر بأن الشرطة تلاحقه .. سوف تحيط به ألف سيارة فى أية لحظة ويخرج رجال الشرطة المخيفون الذين لم يتخلصوا بعد من طقوس (الجستابو) ..

ربما بلد ثالث ؟ لا يعرف ..

المهم مؤقتًا يجب أن يرى مصر وقريته .. بعدها يعرف ما يجب عمله ..

★ ★ ★

جلس فى السنترال يحاول طلب الرقم للمرة الألف ..

كان قد أصيب باكتئاب مزمن ، ولم يعد يطيق أى شىء ، حتى أنه تساءل عما إذا كان أحسن صنعًا برحلة النمسا هذه .. كان يتشاجر مئات المرات يوميًا ..ويصيبه الذهول من كم الزحام والبيروقراطية وصعوبة عمل أى شىء .. حتى ركوب سيارة أجرة عمل معقد يحتاج إلى تخطيط وحظ حسن ..

لكنه كان يريد إتمام هذه المكالمة ..

لابد أن يعرف من (هاتون) ما يجب عمله بهذا الكتاب الرهيب الذى يحتل حقيبة من حقائبه .. هذه الحقيبة صارت رمزًا فى حد ذاتها .. نوعًا من (التابو) .. ثم زحف (التابو) ليشمل غرفة المكتب ذاتها .. وسوف يزحف ليحتل الشقة كلها ..

يجب الخلاص من هذا الكتاب اللعين بأى ثمن .. كتاب ملىء بالسحر الأسود ، تم تجليده بجلد الموتى ، وقد اقتضى الحصول عليه أن يرتكب جريمة قتل !

إنه الشؤم ذاته لو كان للشؤم وزن .. ولولا احترامه

لأستاذه لتخلص من هذا الكتاب فى المرحاض مع شد السيفون ، ثم سكب زجاجة كاملة من حمض (الكاربوليك) للتطهير ..

- « الأخ الذى يريد الاتصال بإنجلترا ! كابينة ٣ »

دوى صوت الموظف عبر مكبر الصوت .. فهرع إلى الكابينة .. كانت هذه هى طريقة الاتصال بالخارج أو بمحافظة أخرى فى تلك الأيام .. أغلق الباب الزجاجى عليه وانتظر حتى جاء صوت الجرس ثم سمع صوتًا بريطانيًا وقورًا يسأل عما هنالك .. . .

- « البروفسور (هاتون) من فضلك »

قال الصوت بلهجة أكسفوردية عظيمة جدًا لا تخرج إلا من فم تشريحه بريطانى :

- « أخشى يا سيدى أن سيدى البروفسور قد توفى منذ أسبوعين ..أخشى أنها نوبة قلبية لو كان لى أن أقول هذا .. أنا رئيس الخدم .. هل يرغب سيدى فى الحديث إلى أرملة سيدى .. مسز (هاتون) ؟! »

-٨-

هكذا جلست وسط عشرات الأوراق ..

لقد جاءتنى تلك الأوراق التى وجدوها فى درج الصحفى الشاب (فايز) .. تلك الأوراق التى حسب (سامح) أنها خرائط سرية لأدق المواقع الأمنية فى مصر .. فى الحقيقة كانت أول نظرة تطلعك على كنهها .. إن النجمة الخماسية (بنتاجرام) واضحة كالشمس فى أول صفحتين . دعك من عشرات الأشكال التوضيحية والتخطيطات التى تعطى الأوراق نكهة (عفاريتية) مقبضة ..

طبعًا كان النص بالعبرية .. لا شك أنها ترجمة الأخ (ناتان غزة) كما هى ..منذ القرن السابع عشر .. إذن هذا الكتاب بين يدى هو (سيفر هاشارى حاداث) ذاته ..

لست شغوفًا على الإطلاق بقراءة المكتوب أو فهمه .. ولو حاولت لن أفهم شيئًا على الأرجح .. لكن الملحوظة المهمة هى أن النص ليس كاملاً .. آخر صفحة توحى بذلك ..

إذن أين الباقى ؟ يسهل افتراض أن الباقى فى درج الصحفى ، لكنى لا أعتقد هذا .. أعتقد أن ما وصله كان

ناقصًا .. ولعله كان يبحث عن كتاب (دى) (إينوخ) بحثًا عن معلومات تقوده إلى الباقى أو إلى فهم الموجود هنا .

السؤال المهم التالى هو : من أين حصل الصحفى على هذه الأوراق ؟ يصعب افتراض أنه سافر إلى (غزة) ونحن فى ذروة الحرب بيننا وإسرائيل .. لم تكن اتفاقات فك الارتباط قد بدأت بعد ..

هكذا فتحت خزانة الثياب ووضعت فيها هذه الأوراق ..

* * *

قال (عادل) فى حرج :

- « نعرف أننا ضيفان ثقيلان يا سيدتى .. لكنى أكرر أن هذا التعاون معنا قد ينقذ كثيرين .. »

قالت مدام (فاتن) وهى تضع القهوة على المنضدة الرخامية :

- « لا مشكلة يا سيدى .. أعرف أن (زكى) كان سيرحب بكما لو .... »

وانفجرت فى البكاء مما جعلنا نبدو كوغدين جاءا يضايقان هذه الأرملة الباسلة ..

كان (عادل) قد جاء القاهرة وعرف منى تفاصيل القصة التى استنتجتها حتى ذلك الحين .. كان الحل الذى توصل إليه هو فحص أوراق (زكى) هذا .. ليكن .. لكن كيف أذهب إلى تلك الأرملة لأقول لها إننى أشك فى أن زوجها لديه نسخة من كتاب شيطانى ، فتسمح لى بالدخول للعبث فى مكتبه .. لكن مع (عادل) لا توجد مشاكل .. لقد اتصل بها ضابط كبير فى مديرية أمن القاهرة وأوصاها بنا .. لقد وافقت على أن نفتش بشكل ودى دون إذن من النيابة ..هكذا تجدنا الآن جالسين فى صالونها لا نعرف ما نقول ..

كنت قد قدرت نوعية هذه المرأة من اللحظة الأولى .. ربة البيت الفاضلة لعلها قريبة (زكى) التى لا تعرف شيئًا فى الحياة سوى بيتها .. طراز المرأة التى تساعد زوجها فى بسالة إلى أن يرقى أعلى السلم الاجتماعى ، فقط ليركلها من عل ويتزوج فتاة تناسب مستواه الاجتماعى الجديد .. طبعًا يتضح أن هذا خطأ عمره ، وتتمكن الفتاة من جعله يلعق التراب ..وهى عدالة شعرية لا بأس بها ..

هى ترتق جواربه .. بالتأكيد ترتق جواربه .. لابد أنها ركعت على ركبتيها أمامه صبيحة يوم مناقشة رسالة الدكتوراه

كى تلمع حذاءه مرة أخيرة .. لأنه لو لمع حذاءه بنفسه لتكسر قماش السروال ..

الآن قد ذهب سيدها .. لهذا هى فى حالة انعدام توازن تام .. كبالون انقطع حبله .. ولو لم يكن هناك أخ أو أب يحل محل (زكى) فإنها ضائعة لا محالة ..

فرغ (عادل) من ارتشاف القهوة ، فقال لها :

- « هل لنا أن نرى الغرفة ؟ »

نهضت واقتادتنا عبر شقة بسيطة لكنها آية فى النظافة إلى غرفة مكتب مرتبة بعناية .. حقًا كانت غرفة تناسب أستاذًا جامعيًا بكل تلك الكتب القيمة فى كل مكان .. على الجدار صورته التى تقول إنه لم يكن يشبه (أبوللو) كثيرًا .. ربما هو يشبهنى إلى حد ما ..

على المكتب كانت أوراق كثيرة ، لكن مجموعة منها بالذات كانت متماثلة الحجم والشكل .. فهى أقرب إلى كتاب لم يطبع بعد .. تفحصت الأوراق فوجدت أنها مكتوبة بالإنجليزية .. هذه المرة لا يوجد شك فى الأمر .. إنها أوراق من كتاب سحر قديم .. نوعية الأوراق التى كانوا يحرقونك فى القرون الوسطى لو وجدوها عندك ..

كانت الأوراق متسخة كأن كوبًا من الكاكاو انسكب فوقها ، ويبدو أنها عوملت بقسوة شديدة .. لكنى أدركت أنها نسخة زنكوغرافية من كتاب .. الهوامش تدل على وجود خياطة .. إذن هو كان يستعمل هذه النسخة للدراسة أما الكتاب الحقيقى فغير موجود ..

سقطت صورة على الأرض .. صورة امرأة على ما يبدو .. فانحنت الزوجة تأخذها ..

أشار (عادل) إلى الأدراج فى المكتب وقال :

ـ « هذه الأدراج .. »

ـ « ليس المفتاح معى . »

قال لها فى شىء من الخبث :

ـ « أقترح أن تجدى نجارًا يهشم هذه الأدراج .. من أدرانا أنها لا تحوى مالاً أو وصية ما ؟ »

قالت فى نفاد صبر :

ـ « سأفعل هذا .. لكن فيما بعد .. لست رائقة المزاج الآن .. »

وجدت على الدرج ملفًا من البلاستيك ، وعلى غلافه قرأت بالإنجليزية (دراسة مصطفى أبى زينة) .. عرضت الغلاف على (عادل) فى صمت .. هذا هو فيما أعرف أول دليل على وجود علاقة بين أربعة القتلى .. ونظرت للزوجة متسائلاً فقالت فى ضيق :

ـ « أى شىء .. خذا أى شىء تريدان .. كنت سأمنح هذه الأوراق للجامعة على كل حال .. »

وتحسست رأسها كناية عن أننا أصبناها بالصداع ..

هكذا قررنا أن علينا الرحيل الآن .. شكرناها وإن كنت أعرف أننا سنعود حتمًا لنرى محتويات ذلك الدرج ..

★ ★ ★

جلست خلف مقود السيارة وجلس (عادل) جوارى ..

وقبل أن يتكلم رحت أقلب أوراق الملف .. ثم هززت رأسى .

سألنى (عادل) :

ـ « هل من شىء مهم؟ »

قلت فى شىء من التهكم :

ـ « استنتاجات بشأن العشرين شيطانًا ! »

ـ « هل تمزح ؟ »

ـ « أقسم بالله أن هذا هو المكتوب .. فلتر بنفسك .. »

ـ « وماذا كتب تحت هذا العنوان العجيب ؟ »

رحت أقرأ بصوت عال :

« Fjjjj fytjgj 8ojklll gkjg lhh khkhou889j uxvyuioymklmm »

قال فى غيظ :

ـ « هل تسخر منى ؟ »

ـ « لا سمح الله .. هذا هو المكتوب حرفيًا .. أعتقد أننا بصدد نوع من الشفرة مفتاحها لا يعرفه إلا القتيلان ! »

لكن الملف لم يكن مشفرًا كله .. أعتقد أنه شفر فقط الأجزاء الخطيرة ..

قال لى (عادل) وهو ينظر فى ساعته :

ـ « لا وقت لدى لهذه الأمور لأن عندى مواعيد مهمة ..

أعتقد أننى سأتركك مع هذا الهراء الذى يروق لك .. هل يمكنك أن توصلنى إلى (الهرم) ؟ »

هززت رأسى .. وإن كان يصعب القول إننى رددت عليه .. كان ذهنى يفكر فى ألف شىء ..

وحينما وصل (عادل) إلى وجهته قال لى شيئًا مثل :

ـ « ا .. أ .. أوما . يكعل صل .. بيك .. »

هززت رأسى موافقًا وإن كنت لم أميز شيئًا مما قال .. وانطلقت بسيارتى .. ثم قررت بعد قليل وأنا أسمع صوت الصدى فى ذهنى أنه قال على الأرجح (اقرأ ثم كون رأيك على مهل .. وسأتصل بك) ..

فى البيت رحت أتفحص الأوراق التى وجدناها لدى الدكتور (زكى) يرحمه الله .. كان ترقيمها ينتهى عند رقم معين مع عبارة لم تستكمل بعد .. هذه الأوراق ناقصة لا شك فى هذا .. أتوقع هذا لأن العثور على ترجمة (دى) لكتاب (نيكرونوميكون) ليس سهلاً ..

ثم خطر لى خاطر .. اتجهت إلى خزانة الثياب وأخذت الأوراق التى كانت لدى الصحفى (فايز) رحمه الله ، ورحت

أراجع أرقام الصفحات .. فهمت ! إن الجزأين يكملان بعضهما وإن كان أحدهما بالعبرية والآخر بالإنجليزية .. من الواضح أن (دى) استعمل أسلوب الترجمة صفحة بصفحة .. لكن النص ليس كاملاً .. النص الإنجليزى سوف يكتمل بجزء آخر ..

أعددت لنفسى بعض الشيكولاته الساخنة ورحت أطالع هذه الأوراق الرهيبة .. لم أفهم شيئًا على الإطلاق ولعله حظى الحسن .. إن الكتاب معقد بحق ..

هكذا وضعت الجزأين فى خزانتى وجلست أفكر فى معنى هذا .. هناك محاولة جاهدة لاسترجاع كتاب لم يجده أحد من قبل باستثناء أسماء مريبة مثل (ناثان غزة) و(دى) و(كراولى) .. وهذه المحاولة تتم فى مصر بالذات ..

على أن أفترض كذلك أن الرجلين الآخرين (يوسف) .. و(مصطفى) لديهما جزءان آخران من الكتاب .. لكن هل هذا ينهى الأمر ؟

كان على أن أتأكد لذا انتظرت حتى اتصل بى (عادل) بعد ساعتين .. قلت له :

ـ « اسمع .. ((يوسف) .. أبو الحسن) و(مصطفى

أبو زينة) .. أريد من يفتش أوراقهما .. أعتقد أن لديهما أجزاء من هذا الكتاب .. »

قال مفكرًا :

ـ « هذا صعب .. لكنه ليس مستحيلاً .. سأحاول ترتيب هذا .. »

ثم أضاف :

ـ « لكننا نريد نتائج .. لو لاحظت لوجدت أن مديرتى أمن القاهرة والإسكندرية تتعاونان .. هذا يدلك على أهمية الموضوع .. فلا تنتبه بى إلى أن القاتل عفريت أو شبح من فضلك ! »

ـ « سأحاول لكنى لا أضمن النتائج .. بالمناسبة أنا أدعوك إلى الغداء معى ما دمت فى القاهرة .. »

انفجر يضحك بضع دقائق ثم قال :

ـ « إلام تدعونى أيها البائس ؟ ما دام الموضوع خاليًا من لمسة الأنثى فمن الخير لك ألا تحاول .. لا أريد أن أصوم وأفطر على طهى الأخ (رفعت إسماعيل) .. لا أريد أن أموت بسرطان المعدة بهذه السرعة .. »

قلت فى كبرياء :

- « بالعكس .. أنا أطهو مكرونة ممتازة .. »

قال ضاحكًا :

- « لا تشغل بالك بى .. رب طبق كشرى من أية عربة تقف فى أى زقاق خير عندى من مكرونتك هذه .. »

- « ستموت مسمومًا بإذن الله .. »

- « على الأقل لن أموت منتحرًا .. »

وضعت السماعة .. وبدأت إعداد المكرونة القاتلة التى سآكلها أنا فقط ..

- ٩ -

منذ عامين ونصف ..

حدث هذا منذ عامين ونصف بالضبط ..

فى لوبى أحد فنادق وسط القاهرة جلس البروفسور (تشارلز هاتون) مسترخيًا واثقًا من نفسه .. إنه أستاذ الأجيال واسمه يكفى لإنجاح أى مؤتمر .. وقبول أية ورقة علمية فى أية مجلة ..

بالنسبة للجالسين من حوله كان الأمر يختلف .. كانوا متوترين يجلسون على أطراف مقاعدهم .. وهم يمدون آذانهم كى لا تفوتهم كلمة من الرجل العظيم .. مع هذا الطراز من العلماء تشعر أن تقديرك لذاتك يتوقف على تقديره لك .. فلو أبدى عدم اكتراث بك أو لم يبال ، تشعر بأنك لست كما حسبت نفسك .. من يدرى ؟ لربما أنت غبى أو أحمق أو عديم التأثير ..أليس هذا ممكنًا ؟

على الأقل كان أكثر الموجودين راحة نفسية هو د. (زكى عبد الرازق) .. فالرجل أستاذه وعلاقته به حميمة منذ كان يدرس فى إنجلترا .. لهذا كان أقرب الجالسين له ، وكان يكلمه بشىء من التبسط .. بل جرؤ أكثر من مرة على

وضع ساق على ساق ، والغربيون عامة لا يرون فى هذا التصرف وقاحة ، لكننا نراه كذلك طبعًا ..

(هاتون) نفسه كان شيخًا مهدمًا خفيض الصوت ، له عينان رماديتان لا تثبتان على وجهك أبدًا .. لكنه بالغ الأناقة .. وفيه لمسة من بناة الإمبراطورية الذين انقرضوا فى إنجلترا أو كادوا .. عندما انقرض شاى الساعة الخامسة ليحل محله الهامبورجر ، وانقرضت مدافع الأسطول لتحل محلها حاملات طائرات الأسطول السادس .. حتى ثقافة (أجاثا كريستى) و (هولمز) انقرضت ليحل محلها (سوبرمان) و (ميكى ماوس) ..

الثلاثة الجالسون هم مع حفظ الألقاب ((يوسف) .. أبو الحسن) و(مصطفى أبو زينة) .. دارسا تاريخ أكاديميان .. الأول جاء من الإسكندرية خصيصًا لهذا اللقاء .. الثالث هو (فايز قطب) .. صحفى شاب صغير السن جدًا ..

أما من حدد هذه الأسماء فهو د. (زكى) نفسه .. كان (هاتون) قد طلب اثنين من الدارسين للتاريخ اللذين يسافران كثيرًا إلى أوروبا وصحفيًا شابًا .. كان يريده شابًا كى يضمن إخلاصه واستبساله فى البحث .. وأن يكون غير

ذى أهواء شخصية وغير متزوج .. وكان (زكى) قد عرف كلاً من هؤلاء الثلاثة فى ظروف مختلفة .. لهذا اتصل بهم ليجمعهم فى هذا اللقاء . أهم ما فى الموضوع هو أنه يعرفهم معرفة سطحية .. لا يريد أشخاصًا يقابلهم كل يوم .. لهذا لم يكلف أيًا من رفاقه فى القسم ..

أما اللفتة التى أثارت دهشة الجميع باستثناء د. (زكى) فهى أن (هاتون) لم يبدأ الكلام إلا بعد أن تفحص باطن معصم كل واحد منهم .. كان هذا غريبًا وقد قبلوه فى ارتباك .. وصمموا على مناقشة الأمر بعد انصرافهم ، أما الآن فإن سن الرجل وهيبته تسمحان له بأن يفعل أى شىء دون توبيخ ..

قال (هاتون) بصوته الخفيض :

ـ « ليس لدى إلا جزء واحد من هذا الشىء .. كل ما لدى هو معلومات مؤكدة عن مكان كل جزء »

بالطبع كان الكلام واضحًا وإن احتاج الصحفى الشاب إلى ترجمة سريعة هامسة فى أذنه لأنه لا يجيد الإنجليزية جدًا . أردف الأستاذ البريطانى العجوز :

ـ « إن الأمر جد خطير .. أنا موقن أن الوقت قد حان .. لهذا أطالبكم بالتعامل مع الأمر بجدية .. »

ثم نظر إلى (زكى) وقال :

ـ « أعرف أن مهمتك العلمية قريبة .. سوف ترحل إلى (سالزبورج) .. سوف أخبرك بالطريقة التى تحصل بها على الأوراق .. إن اليهود هناك يعرفون مكانها أو هذا ما أعتقده .. »

ثم نظر إلى ((يوسف) ..) الباحث السكندرى الذكى وقال :

ـ « أعرف انك ستكون فى إنجلترا قريبًا .. هناك سنلتقى وأعطيك الجزء الذى عندى ، وهو باللاتينية . ما كنت لأجازف بالسفر به »

هز الفتى رأسه فى رهبة ..

ثم نظر العجوز إلى (مصطفى) وقال :

ـ « أما أنت فإنك ستسافر إلى إيطاليا لتحصل على جزء من ترجمة (تيودور فيليتاس) .. إنها باليونانية .. سوف أخبرك كيف تقابل الرجل الذى يملك نسخة منها »

ثم نظر إلى (فايز) وابتسم فتوتر هذا الأخير ..

قال العجوز بينما (زكى) يترجم للفتى ما يقال :

ـ « أما أنت أيها الشاب فمهمتك صعبة نوعًا وسوف أخبرك بها على انفراد .. »

ساد الصمت ثم سأل (يوسف) .. بكياسة :

ـ « بروفسور .. لماذا لم يقم بهذه المهمة شخص آخر ؟ لماذا لم تكلف تلاميذ بريطانيين لك بهذا ؟ »

قال (هاتون) بطريقته الواهنة :

ـ « إن (الحظرد) عربى .. وقد راهنت على أن الكتاب لن يفهمه حق الفهم إلا قارئ عربى .. يجب أن نتفق على أن هناك جزءًا فى عقولنا له جنسية .. مهما قرأ الغربى تراجم القرآن فلن يفهمها كما يفهمها العربى ما لم يصر جزء من عقل الغربى عربيًا .. ومهما بلغت إجادتك للإنجليزية فلن تفهم (شكسبير) كما يفهمه العقل البريطانى ..هذا هو رهانى الخاص .. أنتم أقدر منا معشر الغربيين على فهم ما أراد (الحظرد) أن يقوله .. »

ثم أردف وهو يتناول كوب العصير الذى أمامه :

ـ « إن الوقت ضيق .. لم يعد لدى وقت ولا قوة ذهنية يسمحان لى بهذه الأبحاث المعقدة ، لهذا ألقى بالمسئولية على عواتقكم .. »

ثم طلب من الفتى أن يجلس بجواره ، فنهض هذا متهيبًا .. أدنى أذنه من فمه وراح يهمس له ..

قال (زكى) منبهًا :

ـ « لا أعتقد أنه سيفهم ما تطلبه يا سيدى .. »

ـ « ليس عندما أتحدث ببطء ووضوح .. إن هذا الفتى أكثركم ذكاء .. هذا واضح على وجهه .. »

ثم راح يهمس فى أذن الفتى بما يريده منه ..مستعينًا بورقة راح يخط فيها أشياء ..ومع كلماته راح اللون يفارق وجه الفتى حتى صار بلون هذه الورقة لو كانت الطباعة من نوع جيد ..

* * *

عندما غادروا الفندق بعد ساعة وقفوا جميعًا فى ميدان التحرير عاجزين عن اتخاذ قرار .

فى النهاية قطع (مصطفى) جو الصمت قائلاً بلا كياسة :

ـ « هذا الرجل مجنون ! »

ثم رأى النظرة المنذرة فى عينى د. (زكى) فتحفظ قليلاً .. لكن (زكى) قال فى برود :

ـ « أنت تقول هذا برغم أنك باحث وتعرف قيمة الرجل .. لو قال هذا شاب طائش مثل (فايز) لقبلته .. »

قال (فايز) فى حدة :

ـ « أنا لست طائشًا .. »

قال د. (زكى) بلهجة من لا يريد فتح جبهتين فى آن واحد :

ـ « لم أقصد الطيش .. أقصد أنك لم تحصل على دراسة أكاديمية ، وليست لديك أدوات البحث التاريخى مثلنا .. هذا الرجل كمبيوتر بشرى ويعرف ما يقول . أعتقد أن آخر جزء ستدب إليه الشيخوخة فى جسده هو عقله .. هذا العقل لن يخرف أبدًا .. إما أن يعمل أو يتوقف .. لا يوجد حل وسط .. »

قال (يوسف) .. وهو يركل حجرًا صغيرًا على الأرض :

ـ « وموضوع فحص معصمنا .. بدا لى هذا غريبًا .. »

قال (زكى) فى حماس كعادته كلما تكلم عن الغربيين :

ـ « إن لديه أسبابًا قوية عرفتها منه .. سوف تعرفون هذا وأكثر فيما بعد .. إن هؤلاء الغربيين لا يمزحون بلا

مناسبة ولا يلقون الكلام على عواهنه .. لهذا هم يحكمون العالم .. »

وفكر قليلاً ثم قال :

– « هذا الرجل جلس طويلاً مع (كراولى) .. وسمع منه الكثير .. نحن نعرف أن (كراولى) هو أقرب البشر المعاصرين لهذا الكتاب ، وقيل إنه كان يملك ترجمة (دى) كاملة .. لا أحد يعرف .. لكنى أردت أن أقول إن معلومات البروفسور دقيقة على الأرجح .. »

قال (مصطفى) وهو يتحاشى عينى (زكى) :

– « بصراحة .. هل منكم من ينوى الاستمرار فى هذا الموضوع ؟ »

قال الفتى (فايز) فى حرج :

– « لا أعتقد .. إن ما كلفنى به صعب جدًا .. يوشك أن يكون مستحيلاً »

قال (يوسف) :

– « أما أنا فلن أفعل شيئًا حتى أسافر فى تلك البعثة .. على كل مهمتى سهلة نسبيًا .. »

كان الأمر يبدو لهم سخيفًا جدًا وهميًا جدًا .. وقد قرر أكثرهم أنه ينوى الانسحاب بلا اعتذار .. أما عن (زكى) نفسه فإنه صدق أو لا تصدق كان آخر من يهتم بهذا الموضوع .. فقط كان يعرف شيئًا واحدًا : إنه مخلص للرجل إلى أقصى حد وسوف يفعل كل ما يطلبه منه .. لهذا سينفذ المهمة بدقة .. لكن عليه أن يقنع هؤلاء كذلك لأنه من أتى بهم .. بالتالى هم مسئوليته ..

فيما بعد سوف ينسى الجميع الأمر ..

لن يتذكروه إلا يوم يعود (زكى) من (سالزبورج) بالكتاب الرهيب .. يوم يعرف أن أستاذه البريطانى قد مات .. عندها سيعرف أن المهمة صارت على عاتقه هو .. سوف يتصل بالآخرين ويخبرهم بما عرفه ، من ثم تتحرك القصة من جديد .. (يوسف) .. سوف يذهب إلى إنجلترا .. لن يقابل البروفسور طبعًا لأنه مات ، لكنه سيقابل أرملته .. ولسوف تعطيه أوراقًا كتبت باللاتينية ..

(مصطفى) سوف يذهب إلى إيطاليا حسب تعليمات الرجل المكتوبة ، ليأخذ الجزء المترجم إلى اليونانية من الكتاب ..

(فايز) سيقوم بتلك المهمة الرهيبة التى لم أعرف تفاصيلها فى ذلك الوقت لأنه لم يترك أية مذكرات (لهذا أتركها لخيالك الآن) .. مهمة تحتاج إلى شاب باسل غير ذى أهواء شخصية وغير متزوج .. وصحفى .. مهمة هدفها الظفر بترجمة (ناتان غزة) .. أى كتاب (سيفر هاشارى حاداث) شخصيًا ..

هكذا صار لدى كل منهم جزء من الكتاب ..

ترى ما الذى عرفوه؟ ما الذى وصلوا إليه ؟

هذا هو ما أريد معرفته بشدة ..

- ١٠ -

بعد أسبوعين صار عندى ملفان آخران .. واحد كتب باللاتينية والآخر كتب باليونانية ..

وقد بدأت أدرك أننى كنت محقًا .. بالفعل أرقام الصفحات تكمل بعضها .. ويا له من شعور رهيب عندما تدرك أنك تحدق فى ترجمة (تيودور فيليتاس) أو ترجمة (فيرمياس) .. قرون عديدة مضت على هذه الأوراق وتم تناقلها من يد ليد خلسة .. هى الآن فى يدك أنت بالذات ..

لكن ما الذى نخرج به من هذا الكتاب بفرض أنه صحيح ؟

ثم خطر لى خاطر آخر رهيب ..

هؤلاء ماتوا بتلك الطريقة البشعة لأن كلاً منهم كان يحتفظ بجزء من الكتاب .. لا أعرف من قتلهم ولا الغرض .. لاحظ أننا لم نسمع عن ميتة مماثلة لكل من امتلكوا الكتاب فى التاريخ .. وإلا لكان (دى) أو (كراولى) أجدر منى بهذه النهاية .. ربما كانت لعنة الكتاب تصيب الأبرياء فقط .. أى الأشخاص غير الملعونين أصلاً ..

إذن ماذا عن مصير من يمتلك الكتاب بالكامل ؟

وشعرت بما بقى من شعر رأسى ينتصب ..

نعم .. لو صح توقعى فأنا المرشح الأقوى الآن لهذا ..

ربع كتاب كان كافيًا لانتزاع القلب من الضلوع فماذا عن الكتاب كاملاً ؟

هنا دق جرس الهاتف فوثبت مترين فى الهواء ، ونسى قلبى أن يدق عدة ضربات .. ثم نهضت فرفعت السماعة ليصلنى صوت (عادل) يقول :

ـ « لقد فتحت الزوجة درج زوجها »

ـ « أية زوجة ؟ »

ـ « (فاتن) .. »

ـ « زوجة من ؟ »

ـ « زوجة د. (زكى) .. يا أبله .. هل أصبت بتخلف عقلى ؟ »

ـ « أصبت بماذا ؟ »

هنا انفجر فهو لم يعد يتحمل أو كما يقول العرب لم يعد فى قوس الصبر منزع .. وقال فى غيظ :

ـ « أنت قد جننت تمامًا .. على كل حال وجدنا مذكرات الدكتور .. وهى مهمة بحق .. سوف تصلك نسخة منها حالاً .. لقد اتصلت بهم فى مديرية أمن القاهرة .. أرجو أن تقرأها وتخبرنى برأيك .. »

ـ « أخبرك بماذا ؟ »

لكنه وضع السماعة كى يتجنب سماع أكثر ..

بعد ساعة دق جرس الباب فاتجهت لأفتحه . كان هذا هو مساعد الشرطة (شوقى) الذى تحول عمله إلى إحضار الملفات لى .. شكرته فوقف يلهث طالبًا كوبًا من الماء ، وفكر للحظة فى أن يصاب بنوبة قلبية ويموت على بابى ثم عدل عن هذا التصرف غير المهذب ، وحيانى وانصرف ..

وفى الداخل جلست وتفحصت المذكرات .. إنها تقع فى حوالى مائتى ورقة تحكى بدقة وبخط نضيد أكثر ما يحدث للرجل ، على أن أهم ما وجدته كانت ذكريات رحلته إلى النمسا .. هذا الجزء ألقى الكثير من الضوء على القصة .. هذا نموذج من أربعة يحكى كيف حصل أحدهم على الجزء الخاص به من الكتاب .. لقد تورط الرجل فى القصة بعد موت أستاذه البريطانى .. لم يستطع التخلص من الأوراق ثم

وجد أنها تضم أشياء مهمة فعلاً .. هكذا اندمج فى القصة إلى درجة أنه لم يكن يفارق غرفة مكتبه أبدًا .. لا يوجد دليل فى المذكرات على كونه كان على اتصال بالثلاثة الآخرين فى أيامه الأخيرة .. يبدو أن كل واحد منهم راح يبحث بشكل منفرد .. لكنهم لم يلتقوا قط لتبادل الخبرات ..

ترى هل عرف كل واحد منهم أن الباقين هلكوا ؟ لا أعرف .. إن الأخبار لم تذع فى الجرائد ..

(إن الجيران يمشون بطريقة عجيبة هذه الأيام .. إن أصوات خطواتهم تبدو كأنها آتية من غرفة النوم .. منذ أسبوع سمعت أحدهم يمشى فوق رأسى فبدا لى كأنما يتدرب على الوثب فوق مؤخرته ..)

كان النعاس قد تسرب لعينى فقررت أن أنام بعض الوقت ثم أعاود التفكير أو أتجاهله ..

هنا دق جرس الهاتف بإلحاح شديد ..

اتجهت نحوه متثاقلاً ورفعت السماعة ..

كان المتحدث يتكلم الإنجليزية .. إنجليزية أمريكية واضحة .. وعرفت الصوت على الفور :

ـ « د. (رفعت) .. أنا (سام كولبى) !! »

(سام كولبى) ؟ الساحر النصاب النيويوركى واليهودى مريض البروستاتا الأبدى .. لكن هذا الجرس ليس طويلاً كأجراس المكالمات الدولية .. إن ..

عاد صوته يصيح :

ـ « أنا هنا فى المطار .. مطار القاهرة ! اتصلت بك قبل سفرى لكنك لم ترد ! »

(بالفعل هؤلاء الجيران قد تجاوزوا الحدود ..)

قلت فى غباء وبلا شبهة ترحاب واحدة :

ـ « ماذا أتى بك هنا ؟ »

قال فى عصبية :

ـ « لا وقت للشرح .. فقط أريد منك أن تغادر البيت حالاً ! لا تدخل غرفة نومك بأى ثمن !! »

عدت أسأل بذات الغباء :

ـ « لماذا ؟ ما الذى ؟ »

ـ « أترك البيت حالاً .. ابق وسط الناس ..! إنه ينتظرك فى غرفة النوم الآن ! »

الجزء الثالث

عشرون شيطانًا

إنهم يعيشون بيننا لكنهم لم يتكاثروا .. الأمر هين بالنسبة لهم .. يندمجون بنا ولا يشيخون .. ثم عندما يبدأ من حولهم فى التساؤل يختفون .. ثم يظهرون في مكان آخر باسم آخر ويبدءون حياة جديدة .. لاحظ أن كثيرين - ومنهم (كراولى) نفسه - اعتقدوا هذا ..

- ١ -

اليوم قررت (علياء) أن تقتل زوجها ..

لا تقلق .. هذه هى المرة العاشرة التى تعتزم فيها شيئًا كهذا .. أما فى خيالها فقد قتلته فعلاً ألف مرة ..

فتحتْ الدرج وأخرجتْ المسدس الأنيق الصغير وحشته بالرصاص .. ثم راحت تنظر إليه فى توجس كأنه ثعبان .. بعد دقيقة أغلقت الدرج وهمست من بين أسنانها :

- « It's awful (هذا لا يطاق) »

ثم وقفت فى الشرفة المطلة على البحر ، وأخذت شهيقًا عميقًا لتهدأ .. نوبة الهستيريا قادمة لذا راحت تتنفس بسرعة أنفاسًا قصيرة خاطفة ..

* * *

متى قررت أن الوقت قد حان للخلاص منه ؟

إنها من أسرة أرستقراطية لو لاحظت هذا ، وليس القتل بالسلوك شديد التهذيب بالنسبة لهذه الأسرة .. على الأقل ليس موضة العام .. لكن أحيانًا ما تصير الأمور لا تُطاق بالمعنى الحرفى للكلمة ..

« It's awful »

منذ عشرة أعوام تزوجت د. (مختار) .. الأستاذ الجامعي المرموق .. إنه وسيم نوعًا وعلى قدر لا بأس به من الرقي .. الناس مولعة به ويقولون إنه ابن بلد وظريف .. وتراه هي Cool .. هذا هو ما وصفته به لأبيها ..

لماذا لم يتزوج من قبل ، ولماذا يبدأ التجربة في سن الأربعين ؟ قال إن الحياة والدراسة لم يتركا له الوقت ولا البال الرائق لأمور كهذه .. ثم ..

- « في لحظة يدرك المرء أنه إن لم يتزوج الآن سيكون وحيدًا للأبد .. »

شهقت في رعب :

- « Oh! c'est trop ! (إن هذا لكثير)! »

وكانوا يتحدثون عن أسرته الراقية الثرية .. نعم .. لابد أنه ثري .. كيف بربك يملك هذا كله من راتب الجامعة ؟ من الواضح أنه ورث مبلغًا محترمًا .. هي أيضًا تأخرت كثيرًا في الزواج حتى صارت على مشارف الثلاثين ، لأنها كانت تعتقد أن الرجال صراصير تحوم حول ثروة أبيها ..

أخيرًا وجدت الرجل المناسب .. وتم الزواج وسافرا إلى الخارج في شهر عسل قصير ..

هكذا صارت حياتهما مزدحمة جدًا .. يوصلها للنادي صباحًا ثم يذهب لعمله في الكلية ، ويعود عند الظهيرة ليتناولا الغداء في النادي أو مطعم ما ، ثم يعود بها إلى البيت .. ويقضي فترة العصر في مكتبه ، ثم يخرجان مساء أو يزورهما الأصدقاء ..

هل لاحظتِ شيئًا غير معتاد عليه في ذلك الوقت ؟

لا تعتقد .. المشكلة أنه كان مكتملاً .. مكتملاً بطريقة تثير الريبة .. دائمًا هو متأنق .. دائمًا هو لامع .. دائمًا هو حاضر الدعابة .. دائمًا هو جاهز للكلام المنطقي .. وهذا شيء يثير الغيظ لكنها تحملته ..

آه .. تذكرت .. هناك تلك الوحمة في معصمه .. إنها موجودة بالضبط في باطن المعصم على ارتفاع ٣ سنتيمترات من المفصل .. رأتها مرارًا .. لكنه يخجل منها بشكل خاص لهذا يحرص على ارتداء قمصان طويلة الكمين ، حتى مناماته لها كمان طويلان ، وهي لا تذكر أنها رأته بالثياب الداخلية قط .. حتى حينما ينزل إلى البحر يحرص

على وضع شىء يشبه السوار حول معصمه .. (علياء) هستيرية لكنها لا تعرف هذا عن نفسها .. لهذا هى متأكدة أن شكل الوحمة يتغير كلما رأتها .. تارة تشعر أنها دائرة سوداء ، وتارة تراها أقرب إلى شعار تجارى فلا ينقصها إلا رمز ® .. وتارة هى ثعبان يلتهم ذيله أو نجم خماسى .. ربما سداسى ..

لكنها فى كل مرة كانت ترى تلك الوحمة ربع ثانية ثم يغطيها زوجها فى حرج ، لهذا كان احتمال أنها تخرف واردًا .. لم تكن تهتم كثيرًا لولا أن هذه الوحمة بدت لها سوقيَة و(بلدى) إلى حد كبير .. وقد اقترحت عليه أن يجد جراح تجميل بارعًا يزيلها فابتسم ولم يقل شيئًا ..

ولم يزلها ..

هذا كل ما نغص حياتها فى بداية الزواج ..

لم ينغص عليهما شىء آخر إلا معرفتهما أنها لن تنجب ..

كانت هناك مشكلة ما فى المبيضين .. أم هو الرحم ؟ لا تفهم بالضبط ، لكن الطبيب قال إنه من الصعب أن تنجب .. من المستحيل فى الواقع لأن لديها مشكلة غاية فى التعقيد ..

- « Oh no Merciful God ! » (أه لا . يا إلهى الرحيم) »

وقد ضايق هذا (مختار) كثيرًا .. لكنه لم يتحدث عن الزواج ثانية ولم يتحدث عن الطلاق ..

كل هذه ليست بالأسباب التى تدفعها إلى التدبير لقتله كما ترى ، خاصة أن القتل كما قلنا ليس موضة العام ..

* * *

ربما فكرت فى قتله أول مرة عندما حدثت قصة كلبها ..

كلبها البكينى الحبّوب (سنوبى) كان هو الشىء الأهم الذى جاء معها من بيت أبيها .. كان شيئًا لطيفًا صغيرًا لا يكف عن النباح فى وجه الغرباء ، فإذا اقتربوا سقط مغشيًا عليه من الرعب ..

منذ اللحظة الأولى لم يكن ثمة ود مفقود بين الاثنين .. الزوج والكلب .. بدا أن هناك مثلث حب يجمع الثلاثة وأن الذكرين يغاران من بعضهما .. وكان ظهور زوجها فى أى مكان يكفى كى يتوارى الكلب تحت أقرب أريكة وربما بلل نفسه من الرعب .. أتحدث عن الكلب لا الزوج طبعًا ..

- « لا أفهم كيف تحبين هذا الشىء البشع .. »

هكذا كان زوجها يقول كلما رأى الكلب .. وكانت هى تكتفى بنظرة باردة قاسية لائمة ثم تحتضن الحيوان الخائف الراجف إلى صدرها وهى لا تكف عن ترديد :

- « Tant pis mon petit. »

وذات مرة وجد (مختار) الكلب يرتجف جوار أريكة فى طريقه ، فلم يتردد فى أن ركله ركلة لا بأس بها أبدًا أطاحت به مترين فى الهواء ..

ثم جاء اليوم الذى اختفى فيه الكلب تمامًا .. بحثت عنه فى كل مكان بلا جدوى .. وقيل إنه سرق أو فر .. طبعًا كان هذا مستحيلاً لأن (سنوبى) لن يفر .. إنها تعرفه أفضل من ذاتها .. ربما لا نعرف الكثير عنا .. ربما نكتشف أشياء عن ذواتنا لم نكن نعرفها ، لكن لا يوجد أى سلوك غير مبرر لدى (سنوبى) .. أما عن احتمال سرقته فنحن لسنا فى باريس .. لا أحد يبالى بالكلاب هنا إلا لجرها من أعناقها بحبل فى الطرقات .. دعك من أنها لا تتركه وحده أبدًا ..

طبعًا أمكنها أن تفهم القصة حينما وجد البستانى تلك العظام الصغيرة فى حوض الزهور بعد ستة أشهر من الاختفاء .. لم تستطع أن تلقى نظرة على الجثة لكن البستانى قال إن الجمجمة مهشمة تمامًا ..

طبعًا لم تستطع إلقاء اللوم على زوجها ، لأنها لا تتخيل الأستاذ الجامعى الوقور يهوى على رأس كلب ببلطة .. لكن يظل السؤال هو : من فعلها ؟

* * *

السؤال الثانى المهم هو ألبوم الصور الذى لديه ، والذى عرضه عليها أكثر من مرة ..

ألبوم غريب هو لا يضم صورة أم أو أخ .. فقط صور أصدقاء وصور أجداد .. الطريف هو أن كل أجداده منذ اختراع الكاميرا لهم ذات الوجه .. فقط تتغير الثياب حسب الظروف .. طربوش .. ثياب الأربعينات .. نفس الوجه لايشيخ ولا يتبدل .. هل صفاته الوراثية بهذه القوة ؟

بالمناسبة لماذا لا يشيخ زوجها ؟ حتى بالنسبة لها وهى فى الأربعين فقط هناك أكثر من تجعيدة وأكثر من شعرة بيضاء لأن السنين لا تمر من دون أثر ..أما هو وهو فى الخمسين من العمر فمن المفترض أن تبدو التغيرات أكثر ..

لماذا يصر على أن ينام وحيدًا ولا يسمح لها أبدًا بأن تراه أثناء نومه ؟ هناك غرفة اتخذها لنفسه فى البيت .. وعندما يحين موعد نومه ـ وهو لا يأتى أبدًا إلا بعد نومها

هى ـ يدخل الغرفة ويغلقها على نفسه من الداخل .. غالبًا ما تصحو بعده لتجده منتعشًا متفتحًا يجلس إلى مائدة الإفطار ..

ثم هى تعرف أنه من أسرة أرستقراطية .. لكن من هم بالضبط ؟ لم يزرهما أحد قط ولم يتصل بهما أحد .. وهو الذى تقدم للزواج منها وحده .. كل الناس يقولون إن أسرة (أبو مندور) ثرية جدًا .. لكن أى شىء يربط بينه وبين تلك الأسرة سوى الاسم ؟ اسم (أبو مندور) شائع فمن قال بالضبط أنه من تلك الأسرة ؟

ذات يوم قابلت فى النادى فتاة جميلة وإن كانت تضع المساحيق بطريقة (بلدى) بعض الشىء اسمها (غادة أبو مندور) .. وقد تطرق بينهما الحديث فعرفت أنها من تلك الأسرة الثرية .. سألتها عن زوجها .. هنا تقلص وجه الفتاة شأن من يتذكر .. وقالت :

ـ « (مختار أبو مندور) ؟ أستاذ جامعى ؟ Pardon .. حقًا لا أتذكر هذا الاسم .. إن أسرتنا تضم رجال الأعمال وكبار التجار ولواءات الجيش والشرطة والمستشارين .. بل إن عندنا ممثلاً أو اثنين .. لكن لا أعرف أى شخص من السلك الجامعى .. ربما .. You never can tell »

كما ترى لم تزدها هذه المحادثة إلا قلقًا .. يحب المرء أن يتعامل مع شخص له طول وعرض وارتفاع وجذور .. أن تكون لزوجها أم تتشاجر معها وخالة تتضايق كلما جاءت سيرتها .. لكنها تشعر فى كل يوم أن زوجها نبت شيطانى ..

شيطانى .. هذه هى الكلمة !

هنا تأتى المغامرة التى لابد منها ، والتى يطلق عليها القصصيون والسينمائيون اسم (المشهد الإجبارى) ..

لقد قررت أن تلقى عليه نظرة أثناء نومه ..

أمر عجيب أن يكون هذا مطمح زوجة بعد عشر سنين من الزواج ، لكن الحقيقة هى أنها لم تتمكن قط من ذلك ، وقد بدا لها الأمر غريبًا ..

الغرفة تُغلق بالمزلاج من الداخل لكن هناك شرفة .. شرفة مشتركة مع غرفتها هى ، التى كان يجب أن تكون غرفتهما .. والشرفة تغلق بشيش . طبعًا هذا يسهل الأمور .. كل لص يعرف أن اقتحام الشيش سهل من الخارج إذا كانت عندك أداة يمكن أن تنساب فى الشق ثم ترفع بها اللسان لأعلى ..

كانت تعانى الفراغ وكان عندها كل الوقت لتحسّن طريقتها ..

تتأكد من أن لديها جسمًا يصلح .. تضع بعض الزيت على اللسان كى لا يحدث صريرًا .. ثم تختار ليلة مقمرة حتى تتأكد من أن الغرفة ستكون مضاءة ..

لو وجدها فى غرفته ليلاً فلا مشكلة .. لا جريمة .. لكنها لا تحب أن تجد نفسها فى هذا الموقف .. تشعر بأن اختلاق الأعذار أمر لا يتسق مع الكبرياء ..

وجاء اليوم الموعود .. عادا من الخارج .. كعادته لاذ بالصمت بمجرد دخول البيت .. إن ظرفه ولطفه يشبهان الحذاء الذى ينزعه على عتبة البيت فلا يسمح له بالدخول .. إنه للشارع فقط ..

أعدت لهما الخادم العشاء فجلسا يأكلان فى صمت ..

بالمناسبة .. لم تعرف قط من يحب اللحوم بهذا القدر .. عشر سنوات معه وبرغم هذا لم تلحظ إلا الآن أنه لا يكاد يتذوق الخضر أو النشويات أو الحلوى .. كانت تعلل هذا برغبته فى ألا يزيد وزنه .. لكن لماذا يحرص على عدم التهام الخضر ؟ لو شئنا الدقة لقلنا إنه نباتى لكن بالعكس .. حيوانى إذا كان هناك مصطلح كهذا ..

بعد العشاء أعلنت أنها تريد أن تنام ، فقال لها إنه سيعمل بعض الوقت ..

هكذا دخلت غرفتها وراحت تعد الدقائق إلى أن تهدأ الشقة .. الأنوار تنطفئ .. جو الصمت يعم المكان .. ثم تسمع صوت باب شرفة غرفته ينغلق .. تنتظر فى الفراش متوترة نصف ساعة على الأقل ..

الآن تنهض ..

تتجه إلى باب الشرفة وتفتحها فى حذر ..

نور القمر الفضى الوقور الأنيق يغمر الشرفة .. النباتات المتسلقة تبدو كأنها أشخاص يتلصصون بانتظار من يدخل .. وقد دخلت .. ..

تمشى فى بطء وحذر ، ثم تقف خارج شرفة غرفته ..

أخرجت الأداة الملتوية التى أعدتها فى صبر .. ثم دستها بحذر عبر شق الشيش .. هوب .. حركة لأعلى بخفة .. لقد أجرت البروفة عشر مرات من قبل ..

اللسان يرتفع .. يرتفع ..

تدفع إلى الأمام ليسقط اللسان خارج مجراه ..

أزاحت الباب بحذر .. تبًا .. لقد قامت بتزييت اللسان لكنها نسيت أن تزيت المفاصل .. إن الباب يحدث صريرًا .. صريييييييييييرًا !

كان خافتًا جدًا لكنها شعرت كأنها ستجد الإسكندرية كلها تتساءل عما هنالك ..

أخيرًا انفتح الباب أكثر .. إنها ترى الغرفة فى وضوح تام .. ظلها يمتد أمامها طويلاً مخيفًا وهذا يدل على أنها خططت جيدًا .. النور يدخل الحجرة بالكامل .. سوف ترى ..

زوجها فى الفراش ..

تدنو أكثر فأكثر ..

الآن تراه بوضوح تام فى ضوء القمر المعدنى البارد القاسى ..

فى هذه اللحظة سقطت الأداة المعدنية من يدها ..

كادت تصرخ لكنها لحسن حظها وضعت يدها على فمها فى اللحظة الأخيرة ..

الآن فقط فهمت كل شىء ..

هذا الرجل يجب أن يموت ..

هذا الشىء يجب أن يموت !

يجب ...

* * *

ـ ٢ ـ

قال (كولبى) :

ـ « كنت أتوقع ألا أجدك فى دارك .. كان هذا ليطمئننى .. لكن الكابوس الحقيقى أن تكون موجودًا وتتجاهل الهاتف ، أو موجودًا وأنا قد تأخرت كثيرًا .. »

كنا جالسين فى كافتيريا صغيرة نرشف القهوة .. (كولبى) لا يشربها لأنها تسبب إدرارًا للبول .. فى الواقع هو لم يعد يشرب أى شىء على الإطلاق ..

نظر حوله فى نهم .. فناديت النادل وسألته عن مكان الحمام هنا ، ثم أشرت لـ (كولبى) إلى الاتجاه فقال فى شىء من حرج :

ـ « معذرة .. أنت تعرف مشكلة البروستاتا .. إننى .. »

ـ « أعرف .. أعرف .. فقط أسرع .. »

هكذا توارى ورحت أنا أحملق فى سطح القهوة الرقراق فى القدح ..

* * *

لم أنتظر كثيرًا عندما اتصل بى ..

كنت أعرف أن هناك شيئًا غير طبيعى يحدث فى غرفة النوم ..الضوضاء غير معقولة .. وكان عندى من الأسباب ما يجعلنى أتوقع كارثة ..

لهذا لم أضيع الوقت فى التساؤل ، ولم أهرع إلى غرفة النوم لأرى ما هنالك ..

أنا لا أؤمن بقدرات خاصة لدى (كولبى) ، لكنى لا آخذ ما يقول باستخفاف كبير .. إنه لا يكتب الشعر لكنه يقضى حياته مع الشعراء .. إنه لا يستطيع أن يقلى بيضة لكنه يحفظ كل وصفات الطهى فى العالم .. ليس وسيطًا لكنه يعرف ألف وسيط .. وفى كل هذا يزعم أنه شاعر/ طاه / وسيط بارع ..

لهذا لم أضيع الوقت كما قلت وفتحت باب الشقة ، وسرعان ما كنت على الدرج .. لحسن الحظ أننى كنت أرتدى ثيابًا تصلح للخروج وليس منامة .. إن ثيابى كانت كلها فى غرفة النوم !

كانت فرصة موتى متاحة فى اللحظات التى نزلت فيها لأن السلم كان خاليًا ، لكنى فى النهاية وجدت نفسى فى الشارع . ليس مزدحمًا لكنه ليس مقفرًا .. وسرعان ما وجدت نفسى وسط زحام القاهرة الباعث للطمأنينة .. حتى لو أراد

هذا الشىء أن يتبعنى فلن يستطيع اختراق هذا الزحام .. حتى الأشباح لا تستطيع أن تفعل ذلك ..

كان قلبى الآن يخفق بعنف ، واحتجت إلى وقت لا بأس به كى أستعيد روعى .. دخلت إحدى الصيدليات وابتعت علبة نترات بما وجدت فى جيبى من مال ، وجلست على مقعد هناك ، ودسست قرصًا تحت لسانى بينما الصيدلى يرمقنى فى دهشة .. ثم طلبت كوب ماء ..

هكذا صار من الممكن أن أعيش بضع دقائق أخرى ..

ماذا أتى بـ (كولبى) وما دوره هنا ؟ ماذا أتى به كل هذه المسافة ودون إنذار ؟ ليست الولايات المتحدة هى (الدلجمون) لو كنت تفهم قصدى ..

ثم كيف أجده ؟ لا شىء يربطنا إلا رقم هاتف بيتى .. لاحظ أن الهاتف المحمول لم يخترع بعد ..

بعد تفكير طويل وجدت أن الحل الوحيد هو أن أعود إلى البيت .. لن أكون وحدى هذه المرة ولسوف أراهن على أن هذا الشىء لن يهاجمنى حتى لو كان معى واحد فقط .. أنا أعتقد أن (كولبى) سيعاود الاتصال لمعرفة ما حدث .. لا يوجد لديه سبيل آخر ..

من هذا البائس الذى سأرغمه على قضاء الليل معى ؟

(عزت) طبعًا .. هل لديك اقتراح آخر ؟

هكذا عدت إلى البناية .. كانت المجازفة كبيرة لأننى قد أقابل هذا الشىء على الدرج .. لكنى رحت أردد آية الكرسى محاولاً أن أحتفظ برباطة جأشى .. لحسن الحظ كان البواب نازلاً من السطح الذى استولى عليه بوضع اليد ليقيم مشاريع غامضة .. هكذا رحت أتبادل معه حديثًا سخيفًا عن (الأشياء التى كانت كذلك ثم لم تعد كذلك) وأنا أقرع باب (عزت) بإصرار ..

أخيرًا فتح الفتى الباب فرآنى .. ولابد أن قلبه سقط فى قدميه لأنه يعرف ملامح وجهى ويعرف الطريقة التى أدق بها الباب عندما ...

قلت له فى برود :

ـ « هلم .. ستمضى الليل عندى .. »

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟ »

قلت وأنا أتجه لفتح بابى :

ـ « هذا موضوع يطول .. لكنك تعرف نوعية مشاكلى .. »

كان قد تعلم أن الاستسلام هو خير سياسة معى .. هكذا أغلق شقته واتجه معى وهو لم يبدل منامته بعد ، فجلس

فى الصالة .. تركته هناك واختلست نظرة داخل غرفة النوم .. لا يوجد شىء مريب .. خزانة الثياب مغلقة وكنت أتوقع أن يتم تفتيشها بعناية ..

جلست معه فى الصالة أحدثه عن (الأشياء التى كانت كذلك ثم لم تعد كذلك) .. وهو يهز رأسه فى اتعاظ ونعاس .. لسان حاله يقول : يا سلام .. فعلاً .. كل الأشياء كانت كذلك ثم لم تعد كذلك ..

فجأة دق جرس الهاتف فهرعت أرد ..

حدث ما توقعته ..

جاء صوت (كولبى) يسأل :

ـ « إذن أنت قد عدت .. أرجو ألا يكون شىء مخيف قد حدث .. »

ـ « لم يحدث شىء .. لكن من أين تتكلم ؟ »

ـ « ما زلت فى المطار .. تحرك ولا تخف لأن الخطر زال .. »

ووصف لى مكانه بعناية .. هكذا ارتديت ثيابًا مناسبة أكثر واتجهت إلى الباب أمام نظرات (عزت) المرتابة المرتاعة .. قلت له بفتور وأنا أغادر الشقة :

ـ « معذرة .. ثمة موعد مهم .. لن أستطيع البقاء معك .. استمتع بوقتك .. سلام .. »

إن بعض الناس يفتقرون إلى اللياقة بشكل ملحوظ .. ما الذى يبقيه فى شقتى وهو يرى أننى مشغول ؟

★ ★ ★

يعود (كولبى) من الحمام هو غارق فى الماء كعادته .. لا يمكن أن يدخل الحمام من دون أن ينفجر صنبور الماء فى وجهه ..

جلس فى المقعد المجاور لى .. ثم عبث فى جيوبه حتى أخرج ثلاث صفحات مجعدة متسخة وناولها لى .. سألته فى عدم فهم :

ـ « ما هذا ؟ »

قال باسمًا بوجهه الطفولى الشبيه بوجوه دمى الأطفال :

ـ « باقى الكتاب ! إن الكتاب الذى معك ليس كاملاً ! »

نظرت للصفحات فوجدت أنها مكتوبة بالعبرية .. لكن لها ذات الطابع (العفاريتى) المميز لكل ما وجدته من ذلك الكتاب .. واضح أنها آخر ثلاث صفحات لأننى لم أقابل أية فجوات فى تتابع الأرقام من قبل ..

نظرت له فى حيرة فقال :

ـ « عندما يصير الكتاب كاملاً تصير أنت فى أمان .. لا أحد يهاجم من يملك النسخة الكاملة .. »

ـ « وهذا يعنى ؟ »

ـ « يعنى ما فهمته .. »

نظرت له من جديد وكدت أدس الأوراق فى جيبى ، لكنه انتزعها منى وأعادها لجيبه بابتسامة من طراز (ليس بهذه السهولة) .. دنوت منه أكثر وسألته :

ـ « ماذا أتى بك هنا ؟ »

عبث فى جيوب معطفه .. كالعادة أخرج عشرات المفاتيح والأوراق وأرجل الأرانب وحدوات الحصان .. قلت من قبل إن (الدهولة) لو صار لها اسم لكان (سام كولبى) .. إنه من القلائل الذين أشعر أمامهم بأننى وسيم جدًا أنيق جدًا مرتب جدًا واثق جدًا ..

فى النهاية وجد ما يبحث عنه .. خطاب عليه طابع مصرى كتب عليه اسمه وعنوانه ..

ـ « أنت أخبرت هذا الفتى بعنوانى كى يتصل بى .. »

ـ « تتحدث عن (فايز) .. (فايز قطب) .. »

- «نعم .. نعم .. الصحفى .. »

- « الصحفى الذى مات .. »

بدا كأنما هو لم يسمع الخبر بعد ، لكنه لم يندهش كثيرًا .. قال لى وهو يعيد محتويات جيوبه إلى مكانها بلا نظام :

- « لن أندهش من هذا .. إن من يلعب بالنار لابد أن يتوقع أن يحترق بها .. قليل هم الذين اهتموا بما اهتم به ، وقليل من عاش منهم ليحكى .. »

- « ماذا قال لك بالضبط ؟ »

نظر (كولبى) حوله فى حذر ، ثم قال :

- « قال الفتى إن عنده جزءًا من كتاب (نيكرونوميكون) .. وإنه بحاجة إلى من يفسره له لأنه كُتب بالعبرية .. سألنى كذلك عن نسخة كتاب (إينوخ) ترجمة (دى) .. كان يريد معرفة تفاصيل عن العشرين شيطانًا .. أنت تعرف هذه الأمور »

- « لا .. أنا لا أعرف هذه الأمور .. »

- « ستعرفها حتمًا .. لكن لمصلحتك الخاصة لا تحاول استباق شىء .. طبعًا لم أرد على خطاب الفتى .. لا أحد

يجيب عن أسئلة من هذا النوع .. إن كتاب (إينوخ) موجود ويستعمله سحرة كثيرون ، لكنه ليس من الأشياء التى ترسلها بالبريد لفتى متحمس .. هذا كما تعرف ... »

ثم تقلص وجهه .. فحسبته أصيب بنوبة قلبية .. لكنه هب واقفًا :

- « معذرة .. الحمام .. إنها البروستاتا كما تعلم .. »

تنهدت فى ضيق .. من أين يأتى الرجل بكل هذه السوائل هو الذى لم يشرب كوب ماء منذ قابلته ؟

بعد عشر دقائق عاد غارقًا فى الماء .. لقد جف لتوه ثم عاد يبتل ثانية ..

جلس وأردف :

- « عم كنت أتكلم ؟ عن البروستاتا .. »

- «بل عن كتاب (إينوخ) .. »

حك شعره عدة مرات وقال :

- « آه .. الكتاب .. لقد فهمت من خطاب الفتى أن كتاب (نيكرونوميكون) يجرى تجميعه فى مصر تحت إشراف أستاذ تاريخ .. فجأة ولسبب لا أعرفه صار كل سحرة (نيويورك) على علم بهذا .. إن امتلاك هذا الكتاب حلم كل

منهم .. وأنا لا أختلف عنهم في هذا .. .. هكذا قررت أن آتي إلى مصر وأحاول الحصول على الكتاب كاملاً ..إنه مشروع عمري بلا زيادة ولا نقصان .. وفي ليلة السفر استدعاني (موسفاديم) العظيم .. إنه أمريكي أسود من الخبراء في مهنتنا وله أتباع عديدون في القبو الذي يعيش فيه في (بروكلين) .. وأعطاني هذه القلادة »

ومد يده في جيبه وأخرج قلادة عتيقة .. لا أعتقد أنها ثمينة لكن يتدلى منها حجر أملس غريب الشكل ..

أردف (كولبي) :

ـ « قال لي (موسفاديم) إن الكتاب الآن صار شبه كامل .. وهو بحوزة طبيب كهل نحيل أصلع يعيش وحده وأعرفه جيدًا .. قال لي إن هذا الكهل لا يعرف مدى الخطر الذي يتعرض له .. قال لي إن علي أن أتصل به وأحذره .. هذه القلادة تتوهج عندما يتحرك أحد الشياطين العشرين للقتل .. أعطاني هذه الصفحات وقال إنها تكمل الكتاب .. وإن الكتاب إذا اكتمل يعطي صاحبه نوعًا من الحصانة ، إن الشياطين التي تلاحقك لن تجرؤ وقتها على ذلك »

ـ « يا سلام ! لم أعرف أن سحرة نيويورك مهتمون بصحتي إلى هذا الحد .. »

ـ « بل هي المنفعة .. يخشون من أن تهلك فيهلك سر الكتاب معك ..لا أحد يعرف أين تضعه »

ـ « منطقي .. أصدق تلك التفسيرات التي تضع البراجماتية pragmatism في حسبانها .. »

ـ « طبعًا لم أجد صعوبة في معرفة من هو ذلك الكهل الأصلع النحيل ، خاصة أن الفتى راسلني عن طريقك .. وعندما هبطت الطائرة وأنهيت إجراءات الحقائب ، نظرت إلى القلادة فوجدتها تتوهج بلا انقطاع .. عندها عرفت أن الخطر يتحرش بك في هذه اللحظة .. اتصلت بك وطلبت منك ألا تبقى وحيدًا .. »

ـ « ومن أخبرك أن الخطر في غرفة نومي ؟ »

ابتسم في خجل وقال وهو يجفف عرقه :

ـ « كان هذا مجرد تخمين لا أكثر .. »

ابتسمت بدوري .. الآن القصة منطقية نوعًا .. من جديد ملت عليه أسأله :

ـ « ولماذا لا تترك لي الأوراق التي تكمل الكتاب ؟ »

قال ضاحكًا :

ـ « إنها صفقة .. لديك كتاب ناقص لا يهمك فى شىء ويجلب على رأسك أخطارًا لا حصر لها .. لهذا أريده أنا .. لو تركت لك الأوراق الناقصة لأمكنك أن تحتفظ به للأبد . وهذا ما لا أريده .. »

ثم قال بلهجة أقرب إلى التوسل :

ـ « بالفعل هذا الكتاب لا يمثل لك شيئًا بينما هو لنا مفتاح الكون ذاته .. أرجوك أن تعطينى إياه! »

نظرت له قليلاً .. ورحت أفكر فيما يجب أن أقول .. ثم قلت بصوت مخنوق :

ـ « بالفعل لا أريده على الإطلاق .. إنه كابوس .. »

ـ « هذا ما أحاول إقناعك به .. »

وبدت لى الصفقة عادلة .. سلامتى وراحة بالى مقابل كتاب خطر لا أرى له نفعًا ..

لن أفكر مرتين ...

* * *

ـ ٣ ـ

جاءنى عم (شوقى) مساعد الشرطة بمجموعة من الأوراق .. كالعادة .. وفكر فيما إذا كان عليه أن يموت على بابى ، ثم عدل عن هذا .. أرجو أن يستمر تهذيبه إلى الأبد ..

كانت الأوراق فى مظروف .. وقد أغلق المظروف على طريقة أحراز الشرطة الشهيرة ، وبداخله وجدت ورقة بخط (عادل) تقول :

الدكتور (رفعت) :

هذه الأوراق تخص الدكتور ((يوسف) .. أبو الحسن) رحمه الله .. لقد ترك هذا المظروف لدى صديق له على أن يُفتح فى حالة اختفائه. يبدو أن الصديق تردد فترة طويلة ثم استجمع شجاعته وقرأ الخطاب .. وكان أول ما فيه هو طلب أن يبلغ الشرطة بمحتوى الأوراق. سوف تجد فى الأوراق أشياء تهمك كثيرًا ويهمنى أكثر رأيك فيها. للعلم واتخاذ اللازم ..

عميد (عادل توفيق)

اندهشت لصيغة الخطاب الرسمية ثم إنهائه بعبارة باردة

تقريرية مثل (للعلم واتخاذ اللازم) ، لكنى قدرت أنها طبيعة الحذر .. ربما فُتح المظروف لسبب ما ، فلا يجب أن يبدو العميد (عادل توفيق) أقل من عميد فى أية لحظة.

على أننى على مدى الساعتين التاليتين قضيت أغرب ربما أسود ساعات حياتى وأنا أقرأ قصة (يوسف) .. مع كتاب (نيكرونوميكون) ,أستاذه غريب الأطوار (مختار) .. غريب الأطوار ؟ هذا أقل شىء تصف به شخصًا يلعق عينيه بلسانه .. وبدأت القصة تتضح أكثر ..

إن القصة متعددة الرواة Polyphonic وهو أسلوب أتبعه كثيرًا تعطيك وجهات نظر مختلفة .. العميان الذين يتحسسون فيلاً فيقول الأول : الفيل خرطوم طويل ، ويقول الثانى : الفيل مروحة ، ويقول ثالث : الفيل أربعة أعمدة .. فقط حينما تحشد رواياتهم تدرك أنك ترى فيلاً أمامك .. وقد ساعدت هذه المذكرات مع مذكرات د. (زكى) مع معلوماتى عن القصة .. مع ما يعرفه (كولبى) .. على جعلى أكون صورة شبه كاملة للحدث ...

على أن الأحداث انتهت بالنسبة لى .. لم تعد ثمة قوة دفع أخرى .. أربعة كلفوا بمهمة رهيبة ودفعوا حياتهم ثمنًا

لها ، ومن الواضح أن حوادث القتل انتهت عند هذا الحد .. (كولبى) سيأخذ كتابه الرهيب ويعود السلام إلى الربوع وتغرد العصافير و .. ..

تغرد ؟

لا .. إنها تصدر شخيرًا .. تغط فى نومها ..

لو كان(كولبى) يعانى شيئًا بالإضافة إلى البروستاتا فهى اللحمية .. إنه يصدر صوتًا يذكرك بأتوبيس الأرياف الذى لم يدخل ورشة الصيانة منذ عشرين عامًا ..

الأهم أن هذا الرجل لا يفعل شيئًا إلا النوم .. إنه ينام كطفل رضيع .. لم أر ساحرًا بهذا الكسل فى حياتى .. أعتقد أنه امتهن السحر لأنه يتيح له ألا يفعل شيئًا على الإطلاق .. نسيت أن أقول إنه يقضى أكثر وقت يقظته فى الحمام لأنها البروستاتا كما تعلمون ، حتى صار دخولى الحمام معجزة .. دعك من أنه يأكل كالتماسيح الصغيرة حتى قدرت أن خراب بيتى قريب ..

نعم (كولبى) هنا .. ألم أخبرك بهذا ؟

هذا منطقى .. هو لا يريد التخلى عن الصفحات التى معه وأنا لا أريد أن أبقى وحيدًا مع الكتاب فينتزع قلبى من

الضلوع .. صفقة هى نوع من التكافل الحيوى symbiosis كذلك الطائر الذى ينزع الحشرات عن جلد الخرتيت ويحميه الخرتيت من الأعداء ..

نعم .. (كولبى)* خرتيت .. هذا حق .. لكن لا يوجد حل آخر ..

هناك حل هو أن أعطيه الكتاب وأضعه فى أول طائرة ، لكن (عادل) حينما عرف مغامرتى الصغيرة لم يسمح لى بذلك .. قال لى إننى سأغير رأيى بالتأكيد بعد ما أقرأ مذكرات (يوسف) ..

قال لى فى غيظ على الهاتف :

ـ « نحن لا نمزح هنا .. هناك جرائم قتل وقاتل لم يُضبط قط .. أنت تحدثنى عن كتاب وهراء مماثل .. إذن دع هذا الخبير ينتظر معنا إلى أن نفهم كل شىء .. لا تقل لى إن الكتاب أنهى مهمته وساد السلام .. هذا كلام فارغ لن أضعه فى أى تقرير .. »

هكذا قررت أن أستبقى هذا (الخبير) إلى أن أعرف ما فى مذكرات (يوسف) .. هذا ..

أخيرًا نجحت فى إيقاظ (كولبى) فجلس فى الفراش فراشى يحك بطنه ، لابسًا منامته المزركشة التى لو رأيتها على طفل فى الثالثة من عمره لاتهمته بالابتذال .. ثم سألنى :

ـ « هل من شىء يؤكل ؟ » :

قلت فى عصبية :

ـ « ثمة شىء يُسمع .. هذه المذكرات .. »

وجلست أمامه أحكى له ترجمة أمينة لما قرأت فى مذكرات الباحث الشاب .. راح يصغى وتعبيرات وجهه الطفولى تزداد غباء .. ذهب إلى الحمام مرتين لأنها البروستاتا كما تعلمون ، ثم عاد يصغى بانتباه ..

فى النهاية قال لى :

ـ « الأمر واضح .. لقد استشار الفتى الشخص الخطأ .. إن أستاذه كان واحدًا من العشرين شيطانًا ..إنها صدفة غريبة لو أردت أن تعتقد هذا ، لكنى أميل إلى الظن أن الفتى وجد نفسه مدفوعًا لهذا .. لقد وجهه كتاب النيكرونوميكون إلى ما يبحث عنه »

وقفت ورحت أجوب الغرفة فى عصبية ، وسألته :

ـ « معذرة على غبائى .. لكنى سمعت موضوع العشرين شيطانًا هذا ألف مرة تقريبًا .. ولا علم لى بهم .. فهلا كنت أكثر تحديدًا ؟ »

ابتلع ريقه وقال :

ـ « بلى . أنت تستحق أن تعرف .. »

★ ★ ★

قال (كولبى) :

« من المفاهيم الأساسية فى كتاب (إينوخ Enoch) أن هناك عشرين شيطانًا جاءوا الأرض ، وتزوجوا من بنات البشر فأنجبوا ذرية مخيفة .. أفراد الذرية كانوا متقدمين علميًا وقد صنعوا اسلحة متقدمة متقنة ومجوهرات عجيبة كما أنهم كانوا يشربون الدم كعادة محببة .. من الغريب أن هذه القصة موجودة كذلك فى التلمود ذاته ، وأنت تعرف أهمية هذا الكتاب بالنسبة لليهود .. »

قلت له فى حيرة :

ـ « وما دخل (نيكرونوميكون) بهذا ؟ أنت تتكلم عن كتاب آخر »

قال باسمًا :

ـ « من المفاهيم السائدة فى كتاب (نيكرونوميكون) ذلك الكلام عن الكيانات القديمة Old ones .. إنها كيانات أكبر من البشر .. وراء البشر .. لقد اعتقد (الحظرد) أن أجناسًا أخرى غير الإنسان ورثت معه هذه الأرض ، وأن ما يعرفه الإنسان عرفه من كائنات مما وراء هذا العالم. وآمن ـ وكان دقيقًا فى هذا ـ بأن النجوم شموس أخرى حولها كواكب أخرى. وزعم أنه اتصل بالكيانات القديمة The old ones عن طريق السحر .. وكان يرى أن هؤلاء سيسيطرون على الأرض فى النهاية محولين العالم الذى نعرفه إلى خراب .. زعم أنه تعلم هذا من أطلال (بابل) و(إرم) .. إن .. »

وتقلص وجهه ألمًا ..إنها البروستاتا كما تعلمون .. ثم ..

ـ « إن النكرونوميكون كتاب تاريخ يحكى عن الكيانات القديمة أكثر منه دليلاً للسحرة المبتدئين كما يظن البعض. وهذا هو ما يجعل الكتاب مخيفًا .. فهو لا يعتقد بأننا ملوك الكون وأن الكون فى خدمتنا ، بل هو يتحدث عن كون معاد فيه قوى عاتية ، بينما نحن مجرد غبار معدوم الحيلة وما يبقينا أحياء هو أننا أتفه من اللازم » ..

« كانت هذه هى نقطة لقاء (نيكرونوميكون) والتلمود و (إينوخ) والكابالا .. وهذا هو ما جعل (ناثان غزة) يدرس (العزيف) بعمق .. تعتقد هذه الكتب أن الله خلق عدة عوالم قبل هذه تحللت كلها بسبب شر الكيانات القديمة .. فى العبرية كلمة هى (دن) ومعناها (الحكم على الأشياء) .. إن الكون نفسه أعظم نموذج للدن .. ثم يأتى مفهوم الكليبوث .. الكليبوث باختصار هو قشرة الشر الموجودة فى العالم .. إنها قشرة لا أكثر لكن خطايا البشر تستطيع أن تملأها .. وهنا يمارس الدن تأثيرًا سلبيًا لأنه يفرق بين البشر وبعضهم .. وللكليبوث سبعة ملوك يمثلون العوالم السبعة السابقة المدمرة .. و ... »

إنها البروستاتا كما تعلمون .. ثم ..

ـ « ظهر كتاب (إينوخ) إلى العالم مترجمًا على يد (دى) ، الذى زعم أنه التقى بتلك الكيانات القديمة عن طريق هذا الكتاب .. قال إنها كانت تستعمل شفرة غريبة ، لكنه وجد حل هذه الشفرة فى الـ (إينوخ) واستطاع أن يتصل بها ، وقد استعمل سحرة كثيرون ذات الشفرة اللغوية ووجدوها مريحة » ..

« الآن يمكنك أن تفهم الكلام الذى قاله لك ذلك الصحفى الذى نسيت اسمه .. لقد آمن البروفسور البريطانى بأن العشرين شيطانًا موجودون بيننا ، وأن النهاية قريبة لأن هؤلاء ينتمون إلى الكيانات القديمة .. هذا هو ما انطلق أربعة الباحثين يبحثون عنه .. ثم انتقلت المسئولية لتقع على عاتق ذلك الأستاذ .. هل كان اسمه (زكى) ؟؟ نعم .. ثمة واحد من هؤلاء قام بدراسة معقدة عن الموضوع .. تلك الدراسة المشفرة التى لم نستطع قراءتها .. »

قلت محتجًا وأنا اشعر بأن رأسى ينفجر :

ـ « لحظة .. أنت قلت إن العشرين شيطانًا تزوجوا بنات البشر .. أى أنهم سلالة كاملة الآن .. »

ـ « واضح مما توصل إليه أصدقاؤك هؤلاء أن هذا لم يحدث .. إنهم يعيشون بيننا لكنهم لم يتكاثروا .. الأمر هين بالنسبة لهم .. يندمجون بنا ولا يشيخون .. ثم عندما يبدأ من حولهم فى التساؤل يختفون .. ثم يظهرون فى مكان آخر باسم آخر ويبدءون حياة جديدة .. لاحظ أن كثيرين منهم (كراولى) نفسه اعتقدوا هذا .. »

ـ « كل هذا جميل .. ولكن من هم ؟ »

مط شفته السفلى وقال :

ـ « لا أعرف .. ربما عرف هؤلاء القوم وربما لم يعرفوا .. ربما كانت أسماؤهم موجودة فى تلك الأوراق المشفرة .. قد يكون أحدهم محاسبًا فى (وول ستريت) .. قد يكون أحدهم عضوًا فى مجلس وزراء (تايوان) .. قد يكون أحدهم مليارديرًا سويسريًا .. المهم أنهم بالتأكيد أثرياء .. أن تعيش كل هذا الزمن معناه أن تكون ثريًا .. لابد أنهم واسعو النفوذ .. لابد أنهم لا يبدون على حقيقتهم المفزعة .. لا نعرف .. لكننا نعرف يقينًا أن أستاذ التاريخ الذى استشاره صاحبك كان منهم .. هذا هو طرف الخيط .. »

ـ « وموضوع الوحمة هذا ؟ لماذا تتبدل ؟ »

ـ « أغلب الظن أنها طريقة للتمويه .. لابد من وحمة .. هذه علامتهم وربما مصدر اعتزازهم القومى .. لكن كيف تبدو ؟ احتمالات لا حصر لها .. فى كل يوم لها مظهر آخر .. »

سألته :

ـ « ولماذا مات أربعة الباحثين ؟ ولماذا كتب دمهم كلمات ؟ »

قال بيسمته الطفولية التى تثير غيظى :

ـ « ماتوا لأنهم يعرفون أكثر من اللازم .. بعبارة أدق : لأن الشياطين حسبوهم يعرفون أكثر من اللازم ، وهذا هو السبب الذى جعل من اقتنوا أجزاء من الكتاب قديمًا لا يتعرضون لما تعرض له هؤلاء .. ألم تر أفلام العصابات المدعوة Film Noir إياها ؟ »

يقصد أفلام الجريمة القاتمة القديمة ، حيث لا تعرف إن كان المخبر أم المجرم أكثر إجرامًا ، وحيث الكل (يعرفون اكثر من اللازم) ..

ـ « ولماذا كتب دمهم هذه الكلمات ؟ .. لماذا أشار إلى (العزيف) ؟ »

حك رأسه فى حيرة وقال :

ـ « لا أعرف .. أعتقد أنه تأثير كتاب (نيكرونوميكون) نفسه .. إن الكتاب ينتقم لأصحابه .. يبلغ العالم أنه هو السبب .. »

قلت فى غيظ :

ـ « يا سلام ! أنا لم ألق كتبًا واشية كثيرة من قبل ، لكن

هذا الكتاب يصلح مخبرًا للشرطة .. ولماذا لم يكتب الكلمة مرة واحدة ويريحنا ؟؟ كان بوسعه أن يكتب تقريرًا كاملاً .. إنه ثرثار بما يكفي. »

ـ « ليست هذه الطريقة التى تتحرك بها الأمور فى عالمنا ولا عالم الميتافيزيقا .. لابد من الألغاز .. لابد من التلميح .. فكر فى الأمر كالحلم .. يستطيع الحلم أن يقول لك بصراحة : أنا أخشى أبى وأخجل من بدانتى .. لكن هذا لا يحدث .. بل ترى لغة رمزية شديدة التعقيد .. أعتقد أن عالم الميتافيزيقا يطبق نفس معايير الحلم .. »

كنت أنا أفكر فى عمق ..

للمرة الأولى أسمع كلامًا مهمًا من هذا النصاب متضخم البروستاتا .. بالفعل هو لا يستطيع قلى بيضة لكنه يحفظ كل أساليب الطهى ..

القصة عجيبة .. ولا أصدق حرفًا .. خاصة مع كل تلك المصادر اليهودية .

لكن لا أرى ما يمنع من مقابلة ذلك الدكتور (مختار أبو مندور) ..

ـ ٤ ـ

ـ « هل من المتوقع أن يأتى زوجك الآن ؟ »

ـ « Mais non .. إنه فى الكلية ..ومن هناك سيسافر إلى القاهرة ليبيت هناك »

ـ « وهل يضايقك أن تحدثينا بصراحة ؟ »

ـ « عن أى شىء ؟ »

كنا جالسين فى النادى الراقى إياه .. أنا و(عادل) والسيدة (علياء) .. انطباعى عنها ؟ لا شىء .. إنها متقدمة فى العمر لكنى لا أعتقد أنها كانت جميلة جدًا منذ أعوام .. إنه التعالى .. إنها الأرستقراطية حين ترسم تجاعيدها على الوجه وزاويتى الفم فتمحو ما كان فيه من جمال .. وكانت تدارى عينيها وراء نظارة سوداء أنيقة .. لكنى خمنت أن هاتين العينين تبكيان بإفراط وتسهران كثيرًا ..

تم التعارف بسهولة .. إن (عادل) من رواد هذا النادى . لكنه الآن ليس هنا بصفته الشخصية بل بصفته الرسمية .. وكان قد استبعد تمامًا البدء بالزوج .. هذا هو الحمق بعينه .. قال لى إنه يعتقد أنها مغلوبة على أمرها .. مذكرات (يوسف) .. تخبرنا بهذا .. إنها فى صفنا بشكل ما ..

كان متأنقًا أناقته المعهودة ، مهيبًا نافذًا إلى ما يريد فلم تجرؤ المرأة على الاعتراض .. لو قمت أنا بهذه المحاولة لتلقيت لكمة فى أنفى ..

قال (عادل) بطريقته المقتحمة الجريئة :

ـ « ثمة أشياء بصدد .. إحم .. إن زميلى د. (رفعت) لديه ما يقوله ! »

هكذا صارت الكرة فى ملعبى ..

رحت أرمق الصخب من حولى .. حوض الأزهار .. السقاة يروحون ويجيئون .. أطفال يلهون .. حسناء تركض لتخبر (ميمى) بشىء ما .. ثم قلت :

ـ « ثمة شىء يتعلق بزوجك .. د. (مختار) .. هل توافقين على هذا ؟ »

رفعت حاجبيها فوق إطار النظارة بمعنى (استمر) .. فأردفت :

ـ « وهذا الشىء لا يريحك .. »

ظلت تنظر لى دون أى تعبير .. فواصلت الكلام :

ـ « إنه غريب الأطوار .. ربما مخيف كذلك .. هل ترين هذا ؟ »

هذه المرة تقلص وجهها فى بشاعة وارتفع قوسا حاجبيها فى غضب ارستقراطى محموم ، وقالت :

ـ « It's awful ! How dare you ? » (هذا لا يطاق .. كيف تجرؤ ؟) »

ثم نهضت فى عصبية ، وبعصبية أكثر تناولت حقيبتها وهتفت :

ـ « Je suis dégoûté !! »

لا أجيد الفرنسية ، لكنك لا تجد صعوبة فى فهم شخص يتكلم فى اشمئزاز .. إنه على الأرجح مشمئز ..

هكذا ظللنا أنا و(عادل) جالسين نتبادل النظرات بينما وقفت هى ..

فجأة تصلبت ، ثم جذبت مقعدها وجلست ثانية .. هذه المرة أخرجت منديلها وراحت تبكى كصنبور تالف ..

ثم تمخطت فى سخاء وقالت :

ـ « My hubby .. إنه شنيع .. شنيع !! »

★ ★ ★

قالت (علياء) بعد ما حكت لنا القصة كلها ، تلك التى سمعتها أنت :

ـ « عندما دخلت الغرفة .. لم يكن المشهد قابلاً للوصف .. رباه ! It was such a nightmare .. أى مسخ كان يرقد فى الغرفة المجاورة لى كل هذه السنين ؟ »

قال (عادل) فى إصرار خشن نوعًا :

ـ « هلا وصفته لنا ؟ »

ـ « لا أستطيع .. لابد أن تراه لتصدق .. كتلة عفنة من اللزوجة . شىء يذكرك بالأميبا لكنه شرير فى الوقت ذاته .. يتدلى حول أطراف الفراش حتى تشعر أن قطرات تتساقط منه على السجادة .. فى هذه اللحظة نهض! »

وثبت أنا و(عادل) فى اللحظة ذاتها كأننا نحن من نهض لا الزوج ..

قالت وهى تنزع نظارتها لتحسن تجفيف الدموع :

ـ « نعم .. لقد سقطت من يدى الأداة التى كنت أحملها وسمعها .. فى هذه اللحظة كنت قد تحولت إلى كيان متهالك بلا إرادة كالعجين .. Totally helpless .. سقطت أرضًا بينما

هو ينهض .. كان يضحك كأنه كان يتوقع .. كنت أبكى و ... »

وتهاتفت من جديد ، وتوقف نادل فى فضول ليلقى نظرة على ما يحدث .. ثم قدر أن الأمر لا يستأهل التدخل .. لسنا وغدين نضايق هذه السيدة ..

قالت وقد أعادت نظارتها :

ـ « قال لى إنه كان ينتظر هذه اللحظة .. وظل يردد هذه العبارة مرارًا .. قال إننى لن أستطيع عمل شىء .. إننى تحت رحمته تمامًا .. أنا مجرد زى تنكرى يبدو به بشريًا أمام الناس .. وفى اللحظة المناسبة عندما يتساءل الناس عن سبب عدم تقدمه فى العمر سيختفى .. بعدها يظهر فى مكان آخر باسم آخر ويتقدم بأوراق مزورة طالبًا عملاً جديدًا ، ويتزوج امرأة أخرى ..هكذا كان الأمر منذ قرون .. إن الأمر كما حسبت .. صورة جده وصورة أبيه ليستا إلا صورته هو نفسه .. »

قلت وأنا أتصور الموقف :

ـ « لحسن حظه إذن أنك لم تنجبى »

ضحكت فى مرارة وقالت :

ـ « لم يتزوج لينجب قط .. ليست الأبوة ضمن مشاريعه فهى تتضمن نوعًا من التخلى عن الذات أو منح جزء منها ، وهى فكرة غير واردة بالنسبة له .. لقد فتح لى مكتبه وعرض على مخبارًا مليئًا بمادة حافظة .. الشىء الذى كان فى السائل هو مبيضا امرأة ! »

ـ « فوش ش ش ش ش ش ! »

هذه كانت من (عادل) الذى اختار هذه اللحظة بالذات ليشرب الليمون .. ونظر لها فى ذهول ، بينما سألتها أنا :

ـ « و .. و .. الجراحة التى ... »

قالت بتحد :

ـ « لا جراحة .. لم أشعر بشىء على الإطلاق ولم أعرف بحدوثه .. لقد حدث هذا بعد الزواج مباشرة .. إنه قادر على هذا وأكثر .. ولهذا لم يستطع الطبيب تفسير سر عدم إنجابى .. لقد اعتقد أن انقطاع الدورة له أسباب هرمونية .. »

كنا فى عصر ما قبل الموجات الصوتية لهذا كان اكتشاف

شىء كهذا عسيرًا .. واختلالات الهرمونات واردة على كل حال .. لاحظ انه ما من ندوب توحى بجراحة ..

سألها (عادل) وهو يجفف عرقه :

ـ « ولكن .. كان بوسعه ألا ينجب منك ما دام لا يريد ذلك .. لا يجب أن يجرى لك هذه الجراحة الشنيعة »

قالت وهى تنظر إلى بعيد :

ـ « هو لا يتصرف بهذا المنطق .. ما يعنيه هو أن يسبب الأذى والضرر للآخرين .. ما دام يستطيع إنهاء وجودى كامرأة فلماذا لا يفعل هذا ؟ Why not for God's sake ? »

عدت أسألها وأنا أرتجف :

ـ « وكيف سارت حياتكما بعد هذا ؟ »

ـ « لقد هددنى بأننى لن أستطيع الفرار منه .. على أن أستمر فى أداء دورى الاجتماعى معه وإلا .. هو قادر على تنفيذ هذا التهديد ..سوف يجدنى فى أى مكان .. وقد كنت خائفة .. لذا فعلت كل ما طلب منى .. »

سألها (عادل) :

ـ « لكنك حاولت أن تحذرى الناس منه كلما استطعت .. »

هزت رأسها وقالت :

ـ « نعم .. لقد جاءه باحث شاب متحمس يعمل معه فى ذات الكلية ، واسمه (يوسف) .. يعرض عليه دراسة يقوم بها حول كتاب قديم .. قال له إنه وثلاثة من رفاقه على شفا الكشف عن شياطين تحيا بيننا ولا تبدو مختلفة .. جن جنون زوجى ..لماذا يسأله الفتى هو بالذات ؟ كان متأكدًا من أن الفتى يعرف سره وقد حاول أن ينصب له كمينًا .. عرفت هذا بالطبع لأنى سجينته وهو يتكلم بصوت عال عن كل شىء .. لهذا انتهزت فرصة انفرادى بالفتى وكتبت له كلمة تحذيرية أحسبه لم يعمل بها .. لقد عرفت أنه مات ميتة شنيعة .. »

ـ « هذا ما حدث فعلاً »

ساد الصمت للحظة .. وعرفت ما سيقوله (عادل) ..

ـ « الآن متى يمكنك أن تتيحى لنا دخول غرفة مكتب زوجك ؟! »

ـ ٥ ـ

ـ « لن آتى معكما ! »

قالها (عادل) فى ثبات وهو يغلق باب شقته ..

قلت محتجًا :

ـ « لكننا بحاجة إليك .. أنت تعرف هذا .. »

ـ « أعرف هذا .. مشكلتى أننى أعرف هذا .. أعرف انكما من دونى ستكونان دجاجتين عجوزين حمقاوين .. لكنى لا أستطيع أن أرافقك .. لابد من أن أحصل على إذن رسمى بهذا من جهة قضائية ، وأنت تعرف أن هذا مستحيل اعتمادًا على قصة خيالية كهذه .. وهذا يعنى أن عليك أن تتصرف على مسئوليتك .. المفترض أننى لا أعرف شيئًا عن مغامرتك الحمقاء هذه ..ولو حدثت مشاكل فأنا لا أعرف أى شىء عن الموضوع »

فيما بعد رأيت حلقات (المهمة : المستحيل) التلفزيونية ، حيث كانت كل حلقة تبدأ بعبارة (لو تم القبض على أحدكم فلسوف ننكر أية علاقة لنا به) .. هذا هو العمل السرى الحق ..

هكذا اصطحبنى (عادل) إلى الفندق المطل على الكورنيش، فاستقللت المصعد إلى غرفة (كولبى) ..

كان نائمًا كالعادة .. يجب أن أذكر أنه صار يترك صفحات الكتاب الناقصة فى حقيبتى مع الكتاب ذاته .. فقد فهم أننى زاهد فى اقتنائه كل الزهد، وهو مؤمن أن الكتاب المكتمل هو الطريقة الوحيدة لحمايتى ..

رحت أحكى له ملخص ما حدث ..

ـ « إن الليلة هى فرصتنا الأفضل .. الأخ (مختار) يبيت فى القاهرة .. الفيلا كلها لنا .. لو فاتت الفرصة فلا نعرف متى تسنح من جديد .. »

ـ « إذن سنتسلل كلصين ؟ »

ـ « ليس بالضبط .. إن الزوجة نفسها هى التى ستفتح لنا وستخبرنا بكل التفاصيل .. »

راح يفكر .. وبدا أن الفكرة تروق له ..

قلت له باسمًا :

ـ « لو لم تأت لأرغمتك على ذلك .. هذه المهمة تحتاج إليك .. »

قال وهو يبدل ثيابه :

ـ « أعتقد أنه من الحكمة أن نحمل الكتاب معنا .. ربما كان هذا الشىء الذى سيحمينا »

ـ « وربما كان الشىء الذى تم استدراجنا من أجله »

وهكذا انطلقنا نحو بيت الرجل .. الرجل الذى يبدو كذلك لكنه لا ينتمى للبشر حسب ما يقوله (دى) و(كراولى) وربما (كولبى) كذلك ..

فتحت لنا الباب بنفسها .. لم تتخلص بعد من نظارتها السوداء، وإن عقصت شعرها وارتدت تايورًا أنيقًا فبدت على قدر من الجمال .. وسمحت لنا بالدخول وهى لا تكف عن النظر إلى (كولبى) فى ارتياب ..إن منظره غريب فى أى مكان وزمان ..

قلت لها باسمًا :

ـ « هذا هو (سام كولبى) .. »

هز رأسه لها فى رقة مضحكة .. كان يحمل حقيبته على ظهره فبدا أقرب إلى تلميذ مدرسة خجول يقدمونه إلى (طانط صافيناز) ..

كان هذا كافيًا على ما يبدو لأنها لم تسأل عن شىء آخر .. كأنه من الطبيعى جدًا أن تصطحب معك نصابًا يهوديًا أمريكيًا حينما تزور الناس فى بيوتهم ..

أطلقت شهقة وأطلق (كولبى) صفارة برغمه عندما دخلنا الفيلا .. أنا لست طفلاً .. لقد رأيت الكثير وليس إبهارى سهلاً .. لكنى لم أر هذا القدر من الفخامة والثراء والرقى .. كأن نظراتك ذاتها يمكن أن تخدش كل هذه التحف .. رواق طويل تحف به التحف .. ثمة (كونسول) عملاق .. أكثر من (أنتريه) وصالون .. طنافس تثير الحسد فى نفس (هارون الرشيد) ذاته .. بيانو أسود مهيب الشكل لابد أنه كان يخص الخواجة (هاندل) أو (ليست) .. وعلى الجدار لوحات تأثيرية لن أندهش لو قيل لى إنها حقيقية . هناك طابق علوى .. طبعًا ..

قال (كولبى) فى سذاجة :

ـ « أساتذة الجامعة عندكم يكسبون جيدًا .. »

قلت فى غيظ :

ـ « كلهم ! أنا الفاشل الوحيد ..ولاحظ لسانك لأن السيدة تجيد الإنجليزية »

قالت لنا متجاهلة هذه التعليقات :

ـ « لا يوجد خدم .. كلهم فى إجازة .. هذا يعطينا حرية أكثر .. »

ثم تقدمتنا بسرعة إلى الدرج .. فلابد أن غرفة المكتب فى الطابق الثانى .. ومن جديد مشينا فى ممر يشى بالثراء .. قدماك تغوصان فى السجاد كأنه الرمال المتحركة .. رائحة عطرة تفوح فى الجو .. عندما يكون عمرك عدة قرون فأنت لا تعانى الفاقة .. لو ادخرت قرشًا كل يوم لصرت فى ثراء (قارون) ..

سألها (كولبى) عن الحمام لأنها مشكلة بروستاتا ، فازدادت دهشتها .. إلا أنها اشارت إلى باب جانبى عن يمين الممر ، فمشى إليه وتوارى بضع دقائق عاد بعدها وقد بلل صنبور الماء نصفه العلوى كله .. الأمر الذى لم يزدها ثقة به ..

اتجهت إلى باب عملاق ففتحته بمفتاح أخرجته من صدرها ..

كانت قاعة طويلة ذات إضاءة مريحة خافتة .. هناك مكتبة جدارية وثمة بعض تماثيل برونزية لفتيات إغريقيات

يفعلن أشياء ما .. لا يمكنك أبدًا فهم ما تفعله هذه التماثيل .. هناك مكتب أنيق صغير أعتقد أنه من طراز (شيبينديل) .. هكذا يقولون فى القصص .. وثمة أباجورة صغيرة على شكل أفعى تلتف حول شجرة .. الخلاصة أنه طراز المكاتب التى يتجسسون على محتوياتها فى أفلام الجاسوسية ..

راح (كولبى) يتفحص رفوف الكتب فى الضوء الخافت ، يطالع العناوين الإنجليزية ، ثم قال بخيبة أمل :

- « مجرد كتب تاريخ .. »

قلت فى ضيق :

- « لا تتوقع أن يضع على الرف كتابًا مثل (مذكرات شيطان) أو (الطرق العشر لامتصاص الدماء) .. إنه أستاذ تاريخ لذا لابد أنه يملك كتب تاريخ .. »

كان هناك صف كامل من المجلدات السود التى يبدو أنها الرسائل التى أشرف عليها .. هذا رجل قد أعطى الكثير للعلم حتى لو لم يتعمد هذا .. لكنى ما زلت مندهشًا من قدرته على انتحال هذا الدور .. كيف خدع كل هؤلاء الطلبة الذين جلسوا بين يديه ؟

مدت (علياء) يدها فى صدرها وأخرجت سلسلة فى طرفها مفتاح ، وبيد راجفة عصبية عالجت قفل المكتب فانفتح .. ثم نظرت لنا نظرة تقول (هو لكما) ..

جلست إلى المكتب ووقف (كولبى) ورائى ..

ورحت أعبث فى الدرج محاولاً عدم تغيير شىء من معالمه ..

قالت (علياء) بصوت كالفحيح :

- « لا تحاول .. إنه يضع خيوطًا رفيعة فى كل مكان وكل شىء .. لا يمكنك أن تخدعه أبدًا .. »

نظرت لها فى توتر .. وأعدت النظر إلى الدرج .. ثم سألتها :

- « إذن ما جدوى السرية ؟ »

قالت وهى تتنفس بصعوبة :

- « لا جدوى .. فقط آمل أن تجدا ما يخلصنى منه أو يضعفه .. فيما عدا هذا أنا ميتة .. »

بعد برهة صمت عدت أتأمل الدرج مدققًا .. بالفعل كان

الوغد قد نثر عشرات الخيوط الرفيعة كأنها خيوط عنكبوت فوق كل شيء .. من المستحيل فعليًا أن تتحاشى تمزيق أى خيط ، لكنى أتساءل عما يفعله هو ليعيد الأمور سيرتها الأولى ..

هكذا قررت أن أتعامل بتهور أكثر من منطق من ليس لديه ما يخسره .. ومددت يدى إلى دفتر صغير ورحت أتفحصه .. كان مليئًا بأرقام الهاتف والعناوين .. بعضها فى مصر وبعضها فى الخارج .. قررت أن أدسه فى جيبى لأطلب من (عادل) أن يجد شيئًا مهمًا فيه .. إن كفاءة رجال الشرطة تتلخص فى قدرتهم العددية ومثابرتهم الصبور ..فقط رجال الشرطة يستطيعون أن يعرفوا كل شيء عن كل اسم فى هذا الدفتر خلال أسبوع ، بينما أحتاج أنا إلى عام كامل لهذا ..

كانت هناك مجموعة صور فوتوغرافية لأشخاص .. بعض الصور عتيق وبعضها حديث ..

أما الجائزة الكبرى فكانت تلك المخطوطات التى تم وضعها فى كيس بلاستيكى صغير .. إنها عتيقة جدًا وأصلية .. وكتبت بحروف لا يمكن أن تعرف كنهها .. ليست

العبرية ولا السريانية ولا أية لغة أعرف منظرها .. لغة (عفاريتى) .. هذا هو الوصف الأدق ..

وعرفت أن هذا المخطوط مهم .. ربما يفهم (كولبى) شيئًا منه فيما بعد .. وربما يمكن تدميره لنحرم ذلك الشيء من شيء ما مهم .. لا أعرف .. المهم أن يكون معك لا مع (مختار) ..

أغلقت الدرج وسألت الزوجة :

ـ « هل من مكان آخر تشكين فيه ؟ »

قال (كولبى) الذى لم يفهم السؤال الأخير :

ـ « الثلاجة ! لابد من رؤية الثلاجة ! »

ـ « طلب غريب بعض الشيء .. »

بذكاء قال :

ـ « رأس الاستحواذ يكون موضوعًا فى الثلاجة دائمًا ! »

قلت فى لا مبالاة :

ـ « لا تنس أن البيت يعج بالخدم والزوجة نفسها .. هذا الذى تقوله يحدث حينما يكون الشخص ذئبًا متوحدًا مثلى .. »

قالت الزوجة التى كانت تتابع المحادثة بالإنجليزية :

ـ «بالفعل لا يوجد شىء من هذا .. لا أعتقد أن هناك أماكن أخرى يمكن أن تكون صومعته الخاصة .. غرفة النوم ليس فيها إلا الفراش وخزانة الثياب .. وأنا متأكدة من أنه لا شىء يريب بصددهما .. »

هكذا وضعت كل الكنوز فى الحقيبة التى يحملها (كولبى) .. وأشرت له أن الوقت حان لنرحل ..

لكنه ابتسم .. اتجه إلى خزانة الكتب الجدارية ، وقال لى :

ـ «ساعدنى على إزاحتها ! لابد من أن نرى ما خلفها ! »

قلت له فى ارتباك :

ـ «كف عن الجنون .. لا يستطيع الرجل أن يزيحها لأى سبب و .. »

لكنه راح يدفعها بذراعيه وردفيه واحتقنت عروقه واحمر وجهه .. هكذا اتجهت إليه ورحت أساعده على قدر ما تسمح صحتى ..

قالت مدام (علياء) :

« That's nuts .. لا يوجد شىء هنا .. »

لكن المكتبة بدأت تنزاح ببطء بطريقة الخلخلة المعروفة .. هوب هوب ! هوب هوب ! دفعة صغيرة تلو دفعة صغيرة .. هكذا قررت أن تستسلم وبدأت تنزاح جانبًا فوق البساط الذى قلل احتكاكها بالأرض ..

هنا فقط أدركت أن (كولبى) مفيد جدًا ..

وراء المكتبة كان ذلك النفق الذى يبلغ ارتفاعه قامة طفل فى العاشرة . فتحة فى الجدار تقود إلى ممر مظلم . لكن إضاءة زرقاء تأتى من مكان ما تضىء جوانبه .. لا أريد أن أبدو هستيريًا لكن هذا النفق بدا كأنما هو يقود إلى الجحيم ذاته .. من يجسر على الدخول ؟ من ؟ ليس أنا ..

صحت فى بلاهة :

ـ « هذا لا يصدق .. وإلام يقود هذا الممر ؟ »

نحن فى الطابق الثانى .. والبيت منعزل لا يحيط به شىء .. إذن ..

قالت الزوجة بدورها وهى ترتجف :

ـ «لكن جدار غرفة المكتب لا يقود لشىء .. لا يوجد إلا الخارج فى الجهة الأخرى ! »

قلت وأنا ألهث وأجفف عرقي :

ـ «ربما هو جدار مزدوج .. غرفة سرية ما .. هذه الأشياء واردة .. »

بدا عليها عدم التصديق ، فقال (كولبى) :

ـ « لا هذا ولا ذاك .. هذا نفق بين الأبعاد .. إنه الممر الذى يتصل به (مختار) بالكيانات القديمة .. وهذا لا يخضع للجغرافيا المعهودة .. تدخل منه فتخرج فى مجرة أخرى ربما .. فى زمن آخر ربما .. كنت أعرف أننا سنجده .. »

ثم وقف عند مدخل النفق ، ومن حقيبته أخرج أشياء تشبه الأوتاد ـ لكنها فضية اللون وراح يثبتها بمطرقة صغيرة على الجدران ، ثم أخرج قنينة صغيرة بها سائل أحمر قان راح ينثر محتواها على المدخل .. بعدها أخرج كتيبًا راح يقرأ منه أشياء لم أفهمها .. لكن أحسها ..

هل كان الضوء الأزرق يتراقص مع كلماته ؟ لست متأكدًا ..

فقط رحت أتوقع أن تخرج من النفق يد مخلبية عملاقة تمسك به وتجره إلى الداخل .. لم يحدث هذا لحسن حظه ..

فى النهاية توقف عن الكلام .. وقال بصوت هامس :

ـ « أعتقد أننى أغلقت هذا الممر .. لن يستطيع العودة منه .. »

ـ « ألا تحتاج إلى بعض الخرسانة والقرميد كذلك ؟ »

قال دون أن يضحك :

ـ « لا .. الأمر ليس ماديًا إلى هذا الحد .. إن قوته مريعة ولن يعوقه شىء كهذا .. لن يعوقه إلا رمز .. »

فى هذه اللحظة تصلب ثلاثتنا ..

لقد سمعنا صوت باب يفتح ثم يغلق بالطابق السفلى !

لم نجد وقتًا لعمل أى شىء .. خرجنا من المكتب ومشينا فى الرواق مسرعين ..

وفجأة وجدناه أمامنا !

* * *

كان وسيمًا راقيًا متأنقًا مهذبًا ..

هذا هو ما رأيته بلا أدنى مبالغة .. شخص ظريف له طابع أولاد البلد الودودين .. هل قابلت يونانيًا ممن عاشوا فى مصر طيلة حياتهم وأتقنوا العربية ؟ له ذات الطابع المحبب الذى يجعلك تشعر بأنه صديقك على الفور .. من السهل أن يثق (يوسف) .. به ..

المشكلة الآن أنه ضبطنا متلبسين .. لو قابلنا على الباب لكان التفسير ممكنًا ..

كان ينظر لنا بوجه مشرق مرحب ، فصاحت الزوجة على الفور :

ـ « د. (مختار) .. زوجى .. د. (رفعت) .. مستر (كولبى) .. جميل أن تلتقوا هنا .. جميل جدًا . أنا . أنا مسرورة .. »

ـ ٦ ـ

ـ « لقد عاد ! »

قالتها الزوجة وهى تنتفض كورقة .. فانتفضنا بدورنا ..

ـ « قلت إنه سيبيت ليلته هناك ! »

ـ « قلت .. وقال .. واضح أن الظروف تغيرت .. »

تساءل (كولبى) وهو شاحب الوجه :

ـ « ماذا نفعل ؟ »

ـ « أولاً نعيد المكتبة إلى مكانها ثم نفكر .. هل يمكنك أن تغادرى الدار معنا يا مدام (علياء) ؟ »

تقلص وجهها المذعور وقالت :

ـ « سيكون هذا صعبًا .. سيثير ريبته .. »

ـ « ليس من مصلحتك أن تبقى معه ..قلت إنه سيعرف كل شىء .. »

ـ « (علياااااء) !! »

هذه كانت من الطابق السفلى .. لقد عاد الزوج فعلاً وهو يبحث عن زوجته الحبيبة التى حرمها من الإنجاب .. هكذا

لكن لهجتها كانت تقول بوضوح : أنا لم أفتح درج مكتبك وأكشف لهم أسرارك .. لو حسبت هذا فأنت مخطئ ..

ابتسم ابتسامة رقيقة وقال :

ـ « هل لـى أن أتشرف بمعرفتهم فعلاً ؟ إن الأسماء لا تكفى يا عزيزتى .. »

قالت بتلك اللهجة المتسارعة :

ـ « الدكتور (رفعت) طبيـب نفسـانى .. لقد دعوتـه لأحدثه عن حـالات الاكتئـاب . الاكتئـاب .. التى .. .. أنـت تفهم . قال لى إن رؤية بيتى ستساعده على ..... »

ـ « فهمت .. »

ثم قال وهو يشير إلى غرفة المكتب :

ـ « لو سمحتما لى .. فأنا أيضًا لدى أسئلة مهمة .. نحن لن نترك فرصة كهذه دون أن نغتنمها .. أنت تعرف مـا إن يدرك الناس إنك طبيب حتى يبحث كل واحد منهم فى جسده عن علة ما .. هذا نوع مـن (الاستخسـار) لـو سمحت لـى بالتعبير ..هلا أعددت لنا الغداء يا (عليـاء) ..أنـا لـن أترك ضيفى يرحلان على سغب .. أين الخدم يا (علياء) ؟ »

ونظر لى وغمز بعينه وقال ضاحكًا :

ـ « كما يقول الشاعر العربى القديم :

سألونا عن قراه .. فاختصرنا فى الجواب

كان فيه كل شىء .. باردًا إلا الشراب ! »

طبعًا (القرى) بكسر القاف هو ما يقدم للضيف من طعام أو شراب ..إن الرجل مثقف كذلك .. لكنى لن أندهش لو كـان قد سمع هذين البيتين من فم الشاعر (الزوزنى) نفسه ..

قالت (علياء) البائسة وهى تحاول تفادى عينيه :

ـ « أعطيت .. أعطيتهم إجازة .. »

ـ « آه .. أخشى أن إعـداد الطعام سيكون مسئوليتك .. والآن أرجو أن تسبقانى إلى المكتب .. »

كنت أعرف أن هذا سخف . لو كـان هو مـن الشياطين العشرين فهو يعرف بالتأكيد دورى فى القصة .. إنه يقودنـا لفخ ما .. لكن كيف تتخلص منه ؟

هكذا عدت إلى غرفة المكتب مع (كولبى) وجلسنا علـى مقعدين هناك بانتظاره .. المكتبة ! لـم نعدهـا إلـى مكانهـا ! لكن لا وقت لهذا الآن ..

فجأة رأيت (كولبى) ينظر إلى شىء فى يده .. ثم نظر لى وعيناه تتوهجان :

ـ « القلادة ! قلادة (موسفاديم) تتوهج ! أحد الشياطين يتحرك للقتل ! »

أحد الشياطين ؟ لدى شعور غريب بأننى أعرف من هو ..

هكذا نهض مسرعًا وأنا معه ..

أين نذهب ؟

فجأة رأيت ذلك النفق فصحت فى (كولبى) أن يتبعنى .. لا يوجد مخرج آخر فى الحجرة كلها غير الباب وهذه الفتحة .. لو كان حمارًا ـ وأنا أثق بهذا ـ فقد انتهى أمرنا !

هكذا عبرنا مدخل النفق ووقفنا متصلبين نرمق غرفة المكتب الخالية .. لحظات قبل أن ينفتح الباب ويدخل الدكتور (مختار) .. لقد انتهى عصر المجاملات الرقيقة والأقنعة .. وبدأ عصر الرعب ..

لقد صار طوله ثلاثة أو أربعة أمتار .. وانتفش الشعر الثائر على جانبى رأسه كالمذعوبين .. عيناه بلون الدم والدم

يسيل من شدقيه .. ليست له يدان وذراعان بالمعنى المفهوم لكنها كتل بروتوبلازمية أميبية تسيل وتزحف فى كل اتجاه وبسرعة لا تصدق .. الدخان كبريتى الرائحة يتصاعد من جسده ..

رباه ! أنا الذى زرت جانب النجوم وحسبت أنى رأيت كل شىء !

من بين شفتيه يدوى صخب هو أقرب إلى حروف :

! ج ج ج ج ت ت ت و و و و ش ش ش ش ش ش ش ش !!

لكن هذا ليس كل شىء .. كان يصرخ وهو يجر (علياء) من شعرها كأنها دمية :

ـ « تكلمت يا امرأة !! »

ورأيت السيدة (علياء) تُجرّ على الأرض جرًّا وهى تصرخ وتتوسل :

ـ « لم أنذر أحدًا .. ! لقد جاءا إلى الكمين كما اتفقنا ..! لا أجسر على عصيان أوامرك ! صدقنى ! »

فهمت الآن سر عودته المفاجئة .. كانت طعمًا لنا لكنها

كانت مرغمة على ذلك كما هو واضح .. لا ألومها كثيرًا بعد ما رأيت حقيقة هذا الرجل ..

تخلص منها بطريقة بسيطة هى أنه قذفها قذفًا لتضرب الجدار بظهرها ثم تهوى على الأرض وهى تئن . أعتقد أنها ماتت أو تحطم ظهرها .. فلا أحد يتحمل ضربة كهذه ..

لكننا كنا فى أسوأ حال بدورنا فلم نجد الوقت الكافى للنواح والتمرغ على الأرض باكين ..

إنه ينظر لنا ثم يضحك .. أقذر وأسود وأبشع ضحكة رأيتها فى حياتى .. من أين جاء هذا المسخ ؟ لم أر هذا القدر من الشر من قبل برغم خبراتى غير المتواضعة ..

يلعق عينيه بلسانه .. لسان أزرق يتفرع إلى ما يشبه أقدام العنكبوت ..ثم يقول :

ـ « الآن حان وقت المزاح أيها الصبيّان !! »

ثم ينقض علينا والدم يتناثر من حوله ..دخان الكبريت .. القطرات اللزجة .. كل شىء ..

إنه قادم ..

قادم ..

قادم ..

أغمضت عينى وارتجف (كولبى) كالورقة .. وراح يهمس :

ـ « الحمام ..! الحمام !! »

على أننى أدركت من منظر ساقيه أنه بلل نفسه فعلاً .. لم يعد بحاجة إلى الحمام إلا ليستحم .

« ..أعرف أنكما من دونى ستكونان دجاجتين عجوزين حمقاوين .. » قالها (عادل) وكان محقًا لكنى أتمنى أن أرى ما كان سيفعله لو كان معنا ..

فى اللحظة التالية رأيت ذلك المسخ يتراجع وقد صارت غضبته لا تصدق ..

همس (كولبى) بصوت كالفحيح :

ـ «لقد نجحت فى غلق الفتحة .. ! نجحت ! »

فتحت عينى ونظرت .. لولا تلك القلادة لتأخرنا أكثر من اللازم ولانفرد بنا المسخ فى الغرفة .. ولولا هذا الباب غير المرئى الذى شيده (كولبى) لما فصل بيننا والمسخ شىء ..

ووقفنا نراقبه يحوم حول الفتحة وهو يزأر .. يحطم المكتب .. يسقط الكتب من فوق الأرفف ..

صحت من حيث وقفت :

ـ « يا دكتور (مختار) ! »

بدا لى هذا اللقب مضحكًا الآن .. لكنى واصلت الكلام :

ـ « لو كنت تفعل هذا كله باعتبار أننى أعرف التسعة عشر شيطانًا فأنت مخطئ .. أنا لا أعرف سواك .. الذين ماتوا جميعًا لم يعرفوا سواك .. »

لم يتكلم وواصل الدوران فى الغرفة ..

قلت لـ (كولبى) وأنا أمسك بيدى يده الباردة الراجفة :

ـ « أعتقد أنه لن يتركنا نخرج من هذا الجانب .. يجب أن .. يجب أن نجتاز النفق ! »

ـ ٧ ـ

أنت تجتاز هذه الثغرة بين عالمين ..

تمشى فى عالم لم يجتزه سواك من قبل .. لم يجتزه إلا تلك المسوخ .. ربما اجتازه (كراولى) .. ربما اجتازه (دى) .. لا شك فى أن (الحظرد) اجتازه .. لكن (الحظرد) مات .. وأية ميتة !!

تمشى مع (كولبى) محاذرًا أن تتعثر فى الأرض .. إنها مزيج غريب من اليابسة والماء .. مزيج من النار والرماد .. مزيج من الحقيقة والوهم ..

الهواء مزيج من السماء والأرض .. يمكنك أن ترى نفسك مقلوبًا هناك .. ومن حين لآخر يشق السماء مذنب ليس سوى وطواط ملتهب يصطدم بشىء ما فيتناثر الشرر ..

إننا ندنو من قلب الشر .. قلب الكوابيس ..

* * *

« إن النكرونوميكون كتاب تاريخ يحكى عن الكيانات القديمة أكثر منه دليلاً للسحرة المبتدئين كما يظن البعض .

وهذا هو ما يجعل الكتاب مخيفًا .. فهو لا يعتقد بأننا ملوك الكون وأن الكون فى خدمتنا ، بل هو يتحدث عن كون معاد فيه قوى عاتية ، بينما نحن مجرد غبار معدوم الحيلة وما يبقينا أحياء هو أننا أتفه من اللازم .. »

* * *

هنا يصطدم الجبابرة .. جبل يقاتل جبلاً .. شلال يصارع شلالاً .. محيط يضطرم فى محيط ..

وتنظر إلى السماء فترى (رفعت) الطفل يركض فى شوارع المنصورة .. أرى وفاة أبى .. أنا أجلس فى عزاء أمى .. عجلات الطائرة تلمس الأرض البريطانية .. سير (أرشيبالد ماكيلوب) يقدم لى تلك الشقراء الرقيقة الناحلة ويقول باسمًا : « ابنتى .. (ماجى) .. » .. المريضة تموت وأنا غارق فى العرق .. (لوسيفر) يضحك ويقول : « أنا بك أسعد ولك قلبى يطرب .. » و « مندهش أنت للقاء من لا ترتقب لقاءه أيها الفانى » ..

يرفع وحش (لوخ نس) رأسه من البحيرة .. النداهة تنادى .. (هويدا) تتظاهر بالحنان .. رجل (بكين) يحطم عربة القطار .. (هن تشو كان) يتراجع للوراء ويهتف :

« جوانغ سارايانا ! » .. مومياء الفرعون تنهض .. الشىء يتمدد .. صندوق (بندورا) أمامى فهل أفتحه ؟ العزيف .. العزيف .. (رونيل السوداء) قد صارت زوجتى .. لماذا تلقى عظام الطيور تحت نافذتها ؟

لوس دوس سولادوس إيخيبسيوس إستين إن لاس روناس ! لوس دوس سولادوس إيخيبسيوس إستين إن لاس روناس ! لوس دوس سولادوس إيخيبسيوس إستين إن لاس روناس !

لا تطلب الإسعاف .. لا تطلب الإسعاف .. لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم !

لا تطلب الإسعاف .. لا تطلب الإسعاف .. لا تطلب الإسعاف وإلا ستندم !

العساس يخرج من بين الرمال ليفتك بى .. ثم ترتسم الضحكة على وجه (فلاد الوالاشى) .. فامفيرى .. فامفيرى .. مكالمة أخرى بعد منتصف الليل مع (شريف السعدنى) ..

فى الواجهة الأولى ثمة يد بشرية .. يد مبتورة عند المعصم محفوظة فى سائل (الفورمالين) .. هذا جميل وربما

هو من المناظر المبهجة بالنسبة لطبيب مثلى ..لكن ما يثير الحيرة ـ وربما الرعب ـ هو تلك الأظفار الطويلة الشبيهة بالمخالب التى تخرج منها ..وعلى الزجاج كانت صورة رجل وقور يبتسم ..هل هذه يده ؟ إذن لماذا يبتسم ؟

أجثو على ركبتى وأصرخ :

ـ « أنا تعبت .. لا أريد المزيد .. سأموت هنا والآن .. »

الأيدى ذات المخالب تمتد من تحت الأرض وسط بخار الكبريت لتمسك بى .. يا لها من حفاوة ! لم يأخذنى أحد بالأحضان من قبل ..

سأموت هنا والآن .. ولتكونن ميتة جميلة .. إنها السبات ذاته ..

فقط أشعر بـ (كولبى) يصرخ فى أذنى :

ـ « (رفعت) ! لا تستسلم ! سوف يفوزون بك ! لا تترك نفسك ..! يجب ان نخرج من هنا !! »

فجأة أرى العالم من حولى يتحرك .. ومن معالم هذا العالم أرى خمسة كيانات فارعة الطول .. تحيط بـ (كولبى) .. لا أتبين حدود هذه الأشياء .. إنها أقرب إلى خدعة بصرية ما ..

لا أفهم .. إنها تذوب فى الخلفية ثم تظهر . كأنها انعكاسات على سطح ماء .. لا أتبين أى شىء منها ولا أحب ..

لكنى أواصل الصراخ :

ـ « هيا ! .. خذونى ! أنا قد خسرت كل شىء .. ليس لى ولد ولا زوجة .. مفعم بالأمراض والندوب النفسية .. ولن أظفر بحبيبتى أبدًا .. كل ما ظفرت به هو كوابيس .. لن أضيف شيئًا لو خرجت من عالمكم حيًّا لأن هذا سيكون مجرد كابوس آخر أحكيه للناس .. لا أكثر ! »

(كولبى) يتكلم بلغة لا أفهمها .. إنه يمسك بكتاب ضخم فى يده ويفتح صفحاته .. ..

الأيدى ذات المخالب تعتصرنى .. تريد أن تجعل الحياة تنز منى كالليمونة ..

(كولبى) يتكلم وسط أصوات زنير يتعالى ..

(كولبى) مذعور لكنه يتماسك ..

الزنير يحدث عواصف تطير ثيابه وتبعثر شعره لكنه يتكلم ..

السماء تحمر ثم تزرق ثم تخضر ..

(كولبى) يساعدنى على النهوض وأمامنا أرى العالم

الخارجى كما تراه من طائرة .. أرى شارعنا .. أرى الإسكندرية .. أرى الفيلا .. أرى الحديقة .. أرى غرفة المكتب .. إنها خالية ..

هناك كتب مبعثرة فى كل مكان وجثة الزوجة على الأرض ..

فجأة يشد (كولبى) يدى بحزم .. ..

إننا نعبر .. نخرج من الفتحة التى دخلناها ..

فجأة أجد نفسى على أرض غرفة المكتب والأرض تعلو وتهبط بى ..

أنظر إلى حيث جئت فلا أرى شيئًا .. المكتبة مُنزاحة حيث هى ، لكن لم تعد هناك أية فتحات خلفها .. الجدار مصمت سليم ..

و(كولبى) جوارى يزحف على ركبتيه وهو يئن ..

أنظر إلى جوارى فأرى جثة الزوجة ملقاة جوار الجدار حيث تركناها ..

لقد سال الدم من رأسها .. والدم الذى يسيل ينساب على الأرض .. ثم يحتشد على شكل كلمة واضحة :

لم يعد ..

- ٨ -

بعد ما استعدت توازنى فى غرفة الفندق ، أخذت حمامًا دافئًا ثم سألت (كولبى) :

- « ماذا حدث بالضبط ؟ »

كان أسوأ حالاً منى .. لم يتوقع أن يدخل إلى ذلك العالم الرهيب .. لكنه استطاع أن يصمد على الأقل بينما تهاويت أنا ..

قال وهو يجفف شعره :

- « فعلت ما فعله (دى) .. تكلمت مع الكيانات القديمة بتلك الشفرة ! »

- « ماذا ؟ أية شفرة ؟ »

- « كتاب (إينوخ) .. .. ! إنه معى فى حقيبتى ! »

ثم ربت على الحقيبة فى فخر وقال :

- « قالوا إنهم غير قادرين على إيذائنا مادمنا نملك كتاب (نيكرونوميكون) كاملاً .. إن (مختار) أو هذا الذى يشبه (مختار) كان أحمق .. لقد أنسته فكرة افتضاح أمره هذه

القاعدة البسيطة ، وحاول خرق القوانين .. وعندما قابلت هذه الكيانات تكلمت معهم .. أخبرتهم أنه لا جدوى من إيذائنا وأننا لا نريد إلا أن نُترك وشأننا .. وأخبرتهم أننا لا نعرف عنهم شيئًا .. هكذا قرروا أن يصدقونى .. تمت الصفقة وسمحوا لنا بالخروج .. »

ـ « وهذا الذى اعتبرناه (مختار) ؟ »

ـ « اختفى .. إنه الآن فى مكان آخر يبحث عن عمل ويحمل اسمًا جديدًا .. لهذا كُتبت لنا الكلمات (لم يعد) .. لقد رحل .. لم يعد وجوده هنا مأمونًا برغم أنه خطط للبقاء عشر سنوات أخرى .. »

دق جرس الهاتف فى غرفة الفندق فرفعت السماعة .. كان هذا (عادل) يصيح فى غيظ :

ـ « أتركك تعاين البيت فتحيله خرابًا ؟ الزوجة ماتت والزوج اختفى .. وجثة خامسة سطرت دماؤها كلمات ! »

قلت فى كبرياء :

ـ « لو كان أدائى يضايقك فعليك أن تجد خبيرًا غيرى .. لقد فعلت ما بوسعى .. »

ثم أضفت :

ـ « لكنها الجثة الأخيرة .. أنا متأكد من ذلك .. لقد انتهت القصة .. أعرف أن هذا لن يقنع أية محكمة لكننا عرفنا على الأقل من قتل ولماذا قتل .. »

تنهد فى ضيق ووضع السماعة .. كان طن من العمل بانتظاره الآن ..

* * *

سوف يرحل (كولبى) غدًا ..

ما زلت مصرًا على أنه نصاب .. وعلى أنه أحمق .. لكن وجوده فى هذه القصة أفادنى كثيرًا .. لا أنكر هذا .. أعتقد أننى سأتوقف عن مضغ اللادن نصف دقيقة كلما تذكرته بعد سفره ..

كان يحزم حقائبه فى شقتى بالقاهرة ، وقد تناثرت أشياؤه على الفراش .. فجلبت له كيسًا بلاستيكيًا امتلأ بالورق وقلت له :

ـ « لقد استحققت هذا الكتاب .. أنا لا أريده .. لا أحد يريده .. لكنى أعتقد أنه سيفيدك حتمًا »

قال ضاحكًا وهو يضع الكيس بين طيات ثيابه :

ـ « جميل .. جميل .. هـذا هو هدف رحلتى .. الآن أنا أقوى ساحر فى العالم كله .. أنا أملك النيكرونوميكون كاملاً .. لو احتفظت به لصرت الأقوى ، ولو بعته لصرت الأغنى ! »

ـ « أتمنى أن يغير شىء من حظك العاثر هذا .. »

ثم جمعت أوراقى التى فى خزانـة الثياب .. اتجهت إلى المطبخ وبدأت أحرق مذكرات ((يوسف) ..) ومذكرات (زكى) .. فأنا لا أحب أن أرى شيئًا يذكرنى بهذه القصة .. الدخان يتصاعد وأنا أقف إلى حوض غسيل الأطباق .. الأوراق تتجعد ثم تسود ثم تصير رمادًا ..

فجأة وجدت (كولبى) وراء ظهرى يلقى نظرة ، ثم سمعته يهتف :

ـ « ما هذا ؟ »

كان ينظر إلى ذلك الملف الخاص بالمدعو (مصطفى أبو زينة) .. الملف الذى كتب عليه (استنتاجات بشأن العشرين شيطانًا) .. مد يده وانتزعه وراح يحملق فيه .. لم يفهم المكتوب بالعربية لكنه راح يطالع أول سطر :

ـ « Fjjjj fytjgj 8ojklll gkjg lhh khkhou889j uxvyuioymklmm »

ثم هتف بانبهار :

ـ « هذه شفرة .. شفرة (إينوخ) .. لماذا لم تجعلنى أرى هذا الملف من قبل ؟ »

ـ « لم أعرف أنك تهتم بهذا .. »

قال مفكرًا :

ـ « معنى هذا أن رجلين على الأقل كانا يعرفان شفرة (إينوخ) .. وكانا يستعملانها كلغة خاصة طلبًا للسرية .. »

ثم راح يتأمل الأوراق وهتف فى انبهار :

ـ « هذه الأوراق لا تحوى أسماء لكنها تحوى قواعد أساسية للبحث عن العشرين شيطانًا .. إن هذا لا يُصدق ! لقد بلغ هذا الباحث ذروة الدقة والتجرد .. يمكن بسهولة لأية هيئة أن تبحث بعناية طبقًا لهذه القواعد فتجدهم .. إنه يشرح كيف تجدهم . أين تجدهم .. العلامات المميزة لهم .. وهو يضيق دائرة البحث إلى أقصى حد »

قلت له فى نفاد صبر :

ـ « هل تريد هذا الملف أم أحرقه ؟ »

ـ « بل أريده برغم أنه خطر .. من الواضح أن كل من اقتناه هلك .. »

ـ « لقد ظل معى فترة طويلة جدًا .. »

ـ « لقد حماك كتاب (نيكرونوميكون) .. لكن نهايتك كانت قريبة .. »

وعدنا إلى حجرة النوم ليواصل تفقد حاجياته ..

كانت القلادة ملقاة على الفراش .. وحانت منى نظرة لها فوجدتها تتوهج ..

« القلادة ! قلادة (موسفاديم) تتوهج ! أحد الشياطين يتحرك للقتل ! »

(كولبى) منحن على حقائبه يتفحص الملف .. ساعده ظاهر لعينى .. هناك وشم واضح عند المعصم .. ربما وحمة .. لا أتبين الرسم من هذه المسافة .. هل كانت هناك وحمة هنا من قبل ؟ لا أذكر .. بل لا أعتقد ..

« تارة تشعر أنها دائرة سوداء ، وتارة تراها أقرب إلى شعار تجارى فلا ينقصها إلا رمز ® .. وتارة هى ثعبان يلتهم ذيله أو نجم خماسى .. ربما سداسى .. »

ثم السؤال : لماذا لم يدخل (كولبى) الحمام مرة واحدة منذ عودتنا من الإسكندرية ؟ هل شفيت البروستاتا فجأة ؟

مفاوضات مع الكيانات القديمة .. فهل هذا الساحر التعس يملك هذه البراعة ؟ ومنذ متى يجيد شفرة (إينوخ) ؟

الجواب الوحيد هو أن هذا ليس (كولبى) .. إنه واحد منهم عاد معى من النفق .. ومهمته أن يعرف ما أعرفه بالضبط .. عليه أن يجد أى أثر يفيد فى البحث عن العشرين شيطانًا .. وقد وجده الآن وانتهى دورى فى القصة ..

اتجهت إلى المطبخ وتناولت أكبر سكين عندى وعدت به إلى غرفة النوم .. إن ظهره لى .. ترى هل ؟

ليس قتل هذه الأشياء سهلاً .. لكن ربما لو أخذته على حين غرة ؟ وبم أبرر قتله أمام رجال الشرطة ؟

هنا دق جرس الباب فأجفلت ..

التفت لى فداريت ما أحمله تحت ثيابى وبصوت متحشرج قلت :

ـ « أحدهم على الباب .. »

قال وهو يعود لما كان يقوم به :

ـ « فلتر من .. »

اتجهت إلى الباب وفتحته فوجدت مساعد الشرطة (شوقى) الذى يحضر لى الأوراق .. لم أسر من قبل كما سررت برؤية وجهه البرىء الصبوح ..

قلت له فى لهفة وهو يلتقط أنفاسه :

ـ «تعال .. لابد من أن تجلس قليلاً .. لن أتركك هذه المرة .. »

دخل مرتبكًا وهو لا يفهم سر هذه الحفاوة فأجلسته .. أنا متأكد من أن (كولبى) لن يهجم وأنا لست وحدى .. لكن لا . من قال هذا ؟ فى حالتى كاد القتل يحدث فى بيت (مختار) وقد كنا ثلاثة .. ما سبب صوت الطرقات هذا ؟ ماذا يدقه ذلك المسخ فى غرفة نومى ؟

ـ «أهلاً وسهلاً .. »

ـ «أهلاً بك .. »

ـ «مرحبًا »

ـ «مرحبًا بك »

ـ «لقد شرفت دارى ..

ـ «الشرف لى .. »

وهو مرتبك لا يفهم سبب هذا كله .. أتراني جننت ؟

هنا سمعت (كولبى) ينادينى من غرفة النوم بصوت متحفظ :

ـ «أ ..(رفعت) ! »

ماذا يريد ؟ هل يريد الانفراد بى ؟

اتجهت فى حذر إلى الغرفة فرأيته يشير لى كى أدخل .. نظرت للوراء فى تردد ثم قدرت أنه لن يفعل شيئًا الآن .. إنه يريد أن يكذب .. أعتقد هذا ..

دخلت الغرفة لأرى ما هنالك فوجدت نارًا تشتعل فى ركن الغرفة .. أوراق متناثرة فى كل مكان كلها تحترق .. ماذا فعلت أيها المخبول ؟ ستحرق الغرفة ونحن فيها ..

إنه يقف جوار الباب وينثر قطرات من ذلك السائل الأحمر على الأرض .. نظرت للباب ففوجئت بأنه دق وتدين فضيين .. ثم أخرج كتابه إياه وراح يتلو كلمات معينة ..

ما هذا ؟ هل استبدت به روح التمثيل ـ جنون المسرح ـ إلى هذا الحد ؟ ما معنى أن يسجن نفسه فى الغرفة ؟ أم أن هذا كان تمثيلاً هنا وهناك ؟ أم ؟

صحت فى جنون :

ـ « لابد أنك فقدت صوابك ! لماذا تحرق الأوراق فى غرفة نومى ؟! »

قال بصوت كالفحيح :

ـ « إن القلادة تتوهج ..! رأيت هذا الآن »

قلت متظاهرًا بالبراءة :

ـ « وما فى ذلك ؟ »

قال وهو يجذبنى إلى الوراء :

ـ « لقد سمعونى .. يبدو أنهم لم يعرفوا أن هذا الملف الخطر موجود .. وقد قرروا إرسال من يدمرنا .. وقبل أى شىء أحرقوا الكتاب .. أحرقوا (النيكرونوميكون) حتى يكون بوسعهم تدميرنا بلا مشاكل مع قوانينهم ! ثم .. »

ونظرت للوراء لأرى الهول ذاته ..

لقد تحول عم (شوقى) إلى شىء مخيف لا يمكن وصفه .. شىء يختلف تمامًا عن (مختار) .. ليس لهذه الكيانات شكل واحد فيما يبدو ..

لقد كان (كولبى) صادقًا .. كان الخطر خارج الغرفة لا داخلها ..

! ج ج ج ج ت ت ت و و و و ش ش ش ش ش ش ش !!

قلت همسًا وأنا لا أبعد عينى عن الباب :

ـ « ما سر هذه الوحمة على معصمك ؟ »

ـ « هذا وشم .. الساحر المحترم لابد أن يستعمل الوشم .. »

ـ « ولماذا شفيت من دخول الحمام ؟ »

ـ « لم أشف .. لكنى لن أعلن فى الراديو عن كل مرة أحتاج فيها إلى التبول .. هل هذا وقت هذه الأسئلة السخيفة ؟ »

إن ذلك الكائن يعوى ثم ينقض على الغرفة ..

! ج ج ج ج ت ت ت و و و و ش ش ش ش ش ش ش !!

فجأة يبدو كأنه اصطدم بجدار زجاجى صلب .. يتراجع ويهجم من جديد ..

لكنه لا يمل ولا يكل ..

زئيره يصم الآذان .. إنه لن يكتفى باقتلاع قلوبنا بل سيقتلع أكبادنا .

!ج ج ج ج ت ت ت و و و و ش ش ش ش ش ش ش !!

صرخ (كولبى) بكلمات بلغة لا أعرفها وأخرج من جيبه عود ثقاب ..

نظرت بطرف عينى لأراه يحرق الملف الذى كان على الفراش .. ملف العشرين شيطانًا ..

صرخت وألقيت بالأوراق المشتعلة على الأرض ورحت أبعدها عن الفراش ..

وفجأة ساد الصمت ..

نظرت إلى (كولبى) ونظر هو لى ..

وفى حذر اتجهنا إلى الباب فوجدنا الشقة خالية تمامًا ..

لا شىء سوى رائحة الرماد .. لا شىء سوى الفوضى ..

غرفة النوم عبارة عن مسرح عمليات تناثرت فيه أوراق محترقة صار من المستحيل قراءتها .

وهمس (كولبى) وهو يلهث :

ـ « لا أعرف السبب لكن أعتقد أنهم قرروا أن الخطر قد زال .. لقد اقتنعوا بما قلته لهم .. لا أحد سيعرف محتوى ذلك الملف .. »

قلت وأنا أسمع الزئير فى أذنى :

ـ « أرجو هذا .. »

★ ★ ★

حقًا أرجو هذا ..

لقد سافر (كولبى) وبرحيله بدأت أشعر بالذعر .. فهو الشخص الوحيد الذى أعرفه ويعرف ما يفعله فى هذا الموضوع .. من الغريب أن أجد (كولبى) ذا نفع لأول مرة فى حياتى لكنه حدث ..

ترك لى القلادة .. فعلقتها جوار فراشى .. إنها مفيدة وإن قال لى :

ـ « ليس معنى توهجها أنك هدف القتل .. ربما تحرك أحدهم فى الصين أو ألمانيا ليقتل شخصًا سواك .. على الأقل سيكون عندك وقت كاف لاتخاذ قرارك الخاص .. »

قلت له وأنا أتنهد :

ـ « أعتقد أنهم لن يرتكبوا أعمال عنف إلى أن يقرروا أن الوقت قد حان .. معنى هذا أن توهجها يشير إلى بشكل خاص .. »

ثم أضفت باسمًا :

ـ « بعد كل هذا الجهد أنت تعود من دون كتابك اللعين »

قال فى مرارة :

ـ « إلى حد ما أشعر أن هذا الكتاب أنقذ حياتنا أكثر من مرة .. لكنى لن أكف عن البحث .. سأجده وعندها .. »

ما لم أقله له هو أن هذا الكتاب كامل تقريبًا لدى رجال الأمن .. صحيح أن أجزاءه متفرقة لكنه كامل ويمكن جمعه بشىء من الجهد ..

لكن من يريد ذلك ؟ حقًا من يريد ذلك ؟

هناك كذلك تلك المخطوطات التى وجدتها فى مكتب (مختار) .. يمكن أن أعرضها على (عادل) .. ربما تحوى معلومات عن باقى الشياطين .. لكن .. لا .. لن أجازف بهذا .. أنا لا أعرف شيئًا عنهم ولن أجازف بتبديل هذه الصورة .. هذه المخطوطات سوف تُحرق اليوم بالذات ..

* * *

إن النكرونوميكون كتاب تاريخ يحكى عن الكائنات القديمة أكثر منه دليلاً للسحرة المبتدئين كما يظن البعض. وهذا هو ما يجعل الكتاب مخيفًا .. فهو لا يعتقد بأننا ملوك الكون وأن الكون فى خدمتنا ، بل هو يتحدث عن كون معاد فيه قوى عاتية ، بينما نحن مجرد غبار معدوم الحيلة وما يبقينا أحياء هو أننا أتفه من اللازم ..

* * *

كان الرجال الذين لم يعودوا كذلك بانتظارى .. ولم تكن هناك فرصة لالتقاط الأنفاس ..

ولكن هذه قصة أخرى.

* * *

د. رفعت إسماعيل

القاهـــرة

تمت بحمد الله

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس

من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

أسطورة العلامات الدامية

نتحدث اليوم عن كلمات نجدها مكتوبة بالدم جوار جثث القتلى .. من كتبها ؟.. القتيل أم القاتل ؟ .. هذا سؤال مهم .. والأهم منه هو ما الذى يجمع هؤلاء القتلى معاً ؟ .. قصة مقبضة هى عن الشياطين والقلوب المنزوعة وسحر (الكابالا) .. قصة عن الظلام والوحشة والعجوز (رفعت إسماعيل) الذى لم يعد يرى الوحدة ممتعة إلى هذا الحد ..



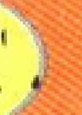
د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

أسطورة

الرجال الذين لم يعودوا كذلك




طباعة ونشر

المؤسسة العربية الحديثة

للطبع والنشر والتوزيع

ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٦٨٣٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧

فاكس: ٦٨٢٧٠٠٢

الثمن فى مصر ٤٠٠ مـ

وما يعادله بالدولار الأمريكى

فى سائر الدول العربية والعالم